جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة

prix littéraires
premios literarios
naji naaman *'s*
literary prizes
2008

نور الجندلي

تحليقٌ

بلا أجنحة

مجموعةٌ قصَصيَّة

دار نعمان للثقافة

نور محمَّد مؤيَّد الجندلي

قاصَّةٌ سوريَّة، من مواليد مدينة حمص عام ١٩٧٨. مُجازةٌ في اللُّغة العربيَّة، نشرَت أكثرَ من كتاب، ولها اهتماماتٌ ثقافيَّةٌ مختلِفة. حائزةٌ عن عملها الحاضِر أحدى جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة (جائزة الاستِحقاق)، ٢٠٠٨، وهي عضو دار نعمان للثَّقافة الفخريّ.

ألإهداء

إلى كلِّ الأحرار... سُفراء الفكر النَّقيِّ في كلِّ مكان...

نور الجندلي ترى بعَينيها ما لا يَراه كثيرون، وترى ببَصيرتها ما لا يَراه إلَّا قليلون. "امسَحي بقايا الدَّمع، فقد خُلِقنا لِنَبتَسِم!"، *ذاك شِعارُها، وتلك ميزةُ البَشَر؛ فهلَّا نسعى جميعًا لِتَكونَ البَسمَةُ شِعارَ كلِّ إنسان؟*

ناجي نعمان

Nour Al-Jandali

Nouvelliste, née en 1978 (Homs - Syrie). Licenciée en langue arabe, elle a à son actif des œuvres publiées et différentes activités culturelles. Lauréate du Prix Littéraire Naji Naaman (Prix du Mérite), 2008.

Short-story writer, born in 1978 (Homs - Syria). BA, Arabic language, with printed works and different cultural activities. Laureate of Naji Naaman's Literary Prize (Merit Prize), 2008.

تحليقٌ بلا أجنحة

قَال لها: كيف تجيدين التحليق بلا أجنحة؟
أجابته واثقة: أصنعُ طائرةً من ورق، وأسكبُ من دمي حبرًا، فيغــدو كائنًا حيًّا بجناحَين قويَّين...
يُسافرُ بي حيثُ أتمنَّى.

بَقَايَا دُمُوع

الجوّ في عيادةِ العينيّة ضبابيٌّ يُشعِرُ بالسأم، الصّمتُ أطبقَ جفنيهِ على كلّ شخصٍ في المكان، ليسجننا في حدوده الرّتيبة. يتخلّله صوتُ سعال طفلةٍ في السّابعة، قُدّر عليها أن تجلسَ قربَ متبجحٍ ينفثُ لفافةَ تبغٍ.
ويختلطُ الدخانُ بالضّبابِ المخيّمِ على الأرواحِ المغلقةِ، يشعرني بأنني أغرقُ وتتقطعُ أنفاسي، معَ كلّ دقيقةِ انتظارٍ إضافيّةٍ .
أحدّقُ في الورقة التي تحملُ رقمي، وأبتسم ...
أليسَ ذلكَ شعوراً غريباً كونكَ قد أصبحتَ رقماً ؟!

مجرّدُ رقمٍ بلا معنى ... يحدّقُ بكَ وهو متصدّرٌ بطاقةً خضراءَ، ليخبركَ بأن الفحوصاتِ لن تجرى لكَ إلا عن طريقه، فتزداد كآبةً وقد استعبدكَ مجردُ رقمٍ ... هو في الحقيقةِ أنت!

نظرةٌ سريعةٌ على الأرقامِ المبهمةِ الأخرى، شركاء الهمِّ والألمِ ...

وجدتُ بأنهم قد تصالحوا مع بطاقاتهم، وقنعوا بأهميةِ أرقامهمِ، وانصرفوا للتفكيرِ في أمورٍ أخرى ..

الشّابُّ الأسمرُ الطويلُ قربي راحَ يقلّب في الجريدةِ، والفتاةُ الحسناءُ على المقعدِ المقابلِ راحت تتأملُ مرآتها ..

ظننتُ بأنها ستكتشفُ على الفورِ مدى قبحِها، ولكنّها راحت تبتسمُ بإعجابٍ، وتتأكدُ من أنّ أحمرَ الشّفاهِ يلمعُ على ثغرها، فأيقنتُ كم أنَّ العيونَ تخدعُ...

بعضها زجاجيٌّ، لا يمتدُّ عصبهُ إلى الشعورِ إلا بأعصابٍ ميتةٍ!

وعيونٌ لا تبصرُ رغمَ أنها سليمةُ البصرِ، قد أجرتْ عليها الطبيبةُ فحصاً دقيقاً، واستخدمتْ كل وسيلةٍ حديثةٍ لتكتشفَ سببَ الخللِ، ولا خللٌ! سوى أنها لا تجيدُ فنَّ الإبصارِ، لا تجيدُ الإبحارَ في تيارِ الدفءِ والفرحِ والحزنِ والألمِ، ولا ترى منْ هذا الكونِ إلا جماداتهِ، ولا تبصرُ بذكاءٍ.

وهناكَ عيونٌ تقرأُ الكلماتِ الشاردةِ، وتحللُ الأفكارَ المحلّقةَ، وتخبركَ بصمتٍ أنها قد فهمتْ لغةَ الصمتِ، ولكن أينها؟!

قُربَ البابِ الذي يؤدّي إلى الطبيبةِ، تقابلتْ نظراتي مع نظراتها، فابتسمتْ.

شعرتُ للحظةٍ أنها كانتْ تتجسسُ على أفكاري، وتقرأُ ملاحظاتي التي

ثرثرتُ بها معَ نفسي في قعرِ الصّمتِ الرتيبِ.
ابتسامتها أشعرتني بالخجلِ، وكثيرٍ من الحرجِ، وكأنها رسالةٌ خفيّةٌ لي كي أتوقفَ عن سردِ الملاحظاتِ وقد كانت هي الأخيرةُ التي لم ألتفت إليها.
قطعت رسائلنا الصّامتةُ خطواتُ الممرضةِ متجهةً إليها...
وضعتْ في عينيها بضعَ قطراتٍ من الدواءِ، وهمستْ لها بلطفٍ:
– لنْ تستطيعي الرّؤيةَ مدّةَ نصفِ ساعةٍ ...
لم تُجبْ، وأيضاً، لم تُفارقها الابتسامةُ!
أغمضتْ عينيها واستسلمتْ للصّمتِ والظلامِ في آنٍ معاً.
مضى الوقتُ لينتشلَ من أمامي بعضَ الوجوهِ والأرقامِ الكئيبةِ، لتحلّ مكانها وجوهٌ وأرقامٌ أخرى، لا تقلّ عنها كآبةً أو بؤساً.
كلّ وجهٍ كانَ مادّة جيدةً لقصّةٍ وهميّة أسردها في داخلي، وأثرثرُ بها على هوايَ لأنتزعَ وحشةَ الرّوحِ.
وبين الدقيقةِ والأخرى كنتُ أختلسُ نظرةً إلى رقمي، فأجدهُ مازالَ يحدّقُ بي بشماتةٍ، يمدُّ لسانهُ في وجهي لإغاظتي، فأتعاملُ مع الأمرِ بحكمةٍ، فأتجاهلهُ، وألحُّ على عقاربِ السّاعةِ بأن تسرعَ، فقدْ طالَ الانتظارُ...
وأسترقُ نظرةً إلى وجهها، فتهدأُ روحي وهي تلمحُ روعة الابتسامِ مخلطاً بدموعٍ سالتْ على الخدّين بفعلِ قطرة.
وحانَ دوري لإجراءِ اختبارِ النّظر...
بعدوانيّةٍ ألقيتُ البطاقةَ والرّقمَ على طاولتها ومضيتُ إلى الطبيبةِ وكأنّي تخلصتُ من قيدٍ يلفّ معصمي.

– أرني عينيكِ من فضلكِ، مما تشكين؟!

همستُ بصوتٍ خفيضٍ:

– من فقرٍ في الدّموع... هل لكِ أن تصفي لي علاجاً للبكاءِ؟ فقد استنفذتُ مدخراتي منهُ وأنا أقرأُ قصصَ ما وراءِ العيونِ.

رفعتْ الجهازَ من أمامي، وهمستْ في أذني:

– أخطأتِ العنوان إذاً...

وأشارت إلى السيّدةِ السّعيدةِ في الخارجِ، وقالتْ:

– ستخبركِ تلكَ المرأةُ بالعلاجِ.

أسرعتُ إليها، وجلستُ قريبةً منها.

آثارُ الدّواءِ بدأتْ تتلاشى من عينيها، فنظرتْ إليَّ مجدداً وابتسمتْ قائلةً :

– مما تشكينَ يا ابنتي ؟

– أفتقدُ دموعي...

قبضتْ على يدي، وقرّبتها إلى قلبي وقالتْ:

– حيثُ يوجدُ القلبُ ستجدينَ الدموعَ، فلا تضيّعي الوقتَ بالبحثِ عن عيونِ الآخرينَ قبلَ أن تكتشفي قلبكِ.

وأعطتني بطاقتها وأضافت:

– عندها لن تكوني مجرّد رقم!

عدتُ ببصري إلى ذاتِ الوجه المتغضّن، لأقطفُ من عينيها ومضةَ أملٍ، وأخطفُ معاني بسمةٍ تعيدُ لي ألقَ الحياة.

مضتْ الدقائقُ لتجعلني في مواجهةٍ فعليةٍ مع ذاتي، لتبكيني كما لم أبكِ من قبل.

شعرت وقتها بأنني قد حصلتُ على دوائي، واستأذنتُ لأمضي، فإذا بها تناديني باسمٍ لا أعرفه، تناولني منديلاً مطرزاً، تشدُّ على يدي، وتهمسُ في أذني:

– امسحي بقايا الدمعِ عن عينيكِ، فقد خلقنا لنبتسم!

سقطتْ دمعةٌ أخيرةٌ دافئةٌ، فمسحتُها رُغمَ الحنينِ إليها... وابتسمت.

عندما لاحَ الهلالُ

أردتُ أن أحتفي بهلالِ الشّهرِ وحدي، فأرقبُ حلوله مع منظاري الأسود القديم، فخرجتُ إلى سفحِ الجبلِ الكبيرِ على حافّةِ المدينةِ، قربَ القلعةِ، وصعدتُ أنشدُ ذاك الهلال ورغبة تعتريني بأن أصابَ بحمّى الفرحِ.

ذلكَ المرضُ النادرُ الذي أنتظر الإصابة به منذُ قرون دونَ جدوى... فكلما مرّ عمرٌ أتوسمُ في القادم خيراً، ولما يطلُّ أبكي حسرةً على الذي فاتَ ورحلَ.

وقد تعبتُ الليلةَ في حسابِ عمري الحقيقي، فوجدتّ العامَ يمرُّ بثقلِ قرنٍ، فغضضتُ الطرفَ عن إحصائهِ إذ أنني لا أحسنُ العدّ.

كانت السماءُ غائمة بحزنٍ لا تشتهي البكاء، بل تبتلعُ دموعها بأسى، وتخفي في غيمها الأبيضَ الرقيقَ جمالَ الهلالِ.

نظرة واحدة للهلال تهيّجُ في داخلي الكثير من الهموم.

توكأتُ على جدارِ القلعةِ ورغبة في داخلي تُلحُّ لأن أتوحّد معه.

هذه القلعة القديمة قد كانت في يوم ما أبيّة شامخة ترهبُ العدو وترجفه، فيحسبُ لها ألفَ حسابٍ، وهاهي اليومَ كومةُ حجارةٍ بالكادِ تحميني من دوارِ العجز.

استأذنتُ الغيمةَ والقلعةَ وحتى الهلالَ بأن أنوبَ الليلةَ عنهم جميعاً بالبكاءِ، وأوصيهم بألا يحدّقوا في دموعي، فلا أحد يحبُّ أن يرى دموعَ الرجالِ، لكنّ قلبي يبكي كعجوزٍ ثكلى، والأرضُ مثلي تنتحبُ، فهي تحتضنُ كلّ يوم عشراتٍ من أبناءها الشهداء.

مذياعي الصغيرُ في جيبي قد أخبرني عن موجزِ الأنباءِ...

فلسطينُ تئنُّ ولكن بإباء، تستقبلُ رمضانها رضيّة، فقد خلقت لتعلمنا الكفاح، وكنّا تلاميذاً كُسالى في مدرستها، فتعلمنا كل دروسَ الحزنِ، وتغيبنا عن صفوفِ الشجاعةِ والنضالِ.

العراقُ تعيشُ رمضانها صامتةً .. فما عادتْ تصرخُ منذُ أن قطعوا حبالها الصوتيةَ، ومنذُ أن استساغ الناسُ علّة الصممِ، تتحاملُ على جراحها لتحفظ ما تبقّى منها من أشلاءٍ طاهرةٍ، وتغفو لتحلمَ آملة بالعودة، وتبتهلُ لله في كل ليلةٍ داعيةٍ لله بأن يجبرَ الكسرَ ويعيد كلّ من رحل.

في باقي المدن العربية احتفالات كبيرة.. بشهر عبادة قد حوّلوه إلى مهرجان .. وعلّقوا كل القناديل الملوّنة، وحبالَ الزينات.. نصبوا الخيام وهيئوها لكلّ وسائلِ المرحِ.

رمضانُ قد غدا شهرَ المرح!

قلتُ في نفسي: إنا لله وإنا إليه راجعون...

عظّم الله أجركِ يا أمتي في مصابكِ، ولماذا لم تعلميني كي أعزّيكِ

بموتى القلوب؟!
ستنظرين إليّ بغرابة وتسألين: أولا تدري أنها ماتت منذُ زمن؟ ورمضانُ شهرُ حزينٌ لم يزل...
وأنت هنا وحدك تبكي وتتجرعُ ألوانَ الألمِ!
نسمةٌ تهبُّ فترتجفُ أوصالي، أشعرُ أنني أقربُ للموتِ من كل حينٍ، قلبي يعاودُ إزعاجي بطرقهِ العنيفِ، أتهاوى قربَ جدارِ القلعةِ، وعيناي معلقتان على الهلالِ الغائبِ بين الغيومِ...
فجأةً... سري الدفءُ في كل خليّةٍ من جسدي...
– إنه معطفي الأسود!
أهذه أنت يا مريمُ؟! أما تعبتِ يا ابنتي من اللحاقِ بي في العتمةِ؟
ابتسمت بحنانٍ، ولمعت عيناها العسليتان، وأومأت لي بحبٍ...
– هيا لنذهب الآن.
– لكنني أبحثُ عن فرحي.
– سيعودُ يا أبتِ؛ سيعودُ يوماً...
– لكنني لا أراه، لا أسمعُ تكبير المآذنِ، لا ألحظُ أنوار القرآن تشعُّ في بيوت مدينتي، ولا ألحظ معناهُ في قلوبهم، فأي شيء تراه سيعيدهم؟!
ساعدتني على النهوضِ، وأعادت ترتيب معطفي على كتفي، وهمست واثقةً:
– فقرهم للقرآنِ سيعيدهم إليهِ، نحنُ أمةٌ لا تموتُ يا أبتِ، كلما انتكست أحسّت بألم الجرحِ فانتشلت نفسها وعادتْ أقوى، سنعود يوماً لدفءِ المعاني في الحياة، وسنتوقفُ عن اصطيادِ الفرحِ ليلةَ إطلالةِ

الهلال، لأن حياتنا كلها ستغدو رمضان.
أومأتُ موافقاً، وابتلعتُ الجرحَ والملحَ والمرارةَ والألمَ، وعدتُ معها إلى بيتنا الدافئ، فرمضان قد أتانا مواسياً أحزاناً تسكننا، وهلالهُ قد لاحَ لنرفع الحجبَ عن ظلمةِ قلوبنا، ونورُ القرآنِ قد أطلّ ليشرقَ روعةً في كل تفاصيلِ حياتنا، فهل نملكُ إلا أن نبتسم؟!

لَم يكُن قَصْدِي

لا أستطيعُ أن أحصي عددَ المرّات التي ركلتُ بها كُرتي إلى حديقتها؛ فتسببتُ لها بأضرارٍ كثيرة، كتحطيمِ الزجاج، وتكسيرِ أغصانِ الورد والشّجيرات التي طالما رتبتها بعنايةٍ فائقة.
أعترفُ بأنني كنتُ أستمتعُ كثيراً في محاولاتي لإغضابها، ولا أدري ما حقيقة رغبتي في إزعاجها؛ هل يكونُ عبثٌ طفوليّ يتمردُ على ذلك الحبِّ الذي يغمر به الجميعُ جارتنا الأرملةُ العجوز؟!
مع أنني الآن قد كبرتُ واستبدلت القفزَ فوقَ سورِ حديقتها بالقفزِ فوق سورِ الجامعةِ في حالاتِ تأخري القصوى، مع كومة من أعذارٍ واهيةٍ يتقنها كل أصدقائي ويبرعون بها كثيراً...
أجلْ لقد كبرتُ ونبتَ لي شاربٌ خفيفٌ يعلن للجميع أنني رجلٌ وسيمٌ، وامتدتْ قامتي كثيراً ليصبحَ طولي ضعفَ طولها، ومع ذلك مازلتُ أرغبُ في مشاكستها.
ها هو رمضانُ يعودُ أخيراً، ومتاعبها المتجددة تعود معه ربما لكي

تخبرني عن بعض الأسباب الذي تدفعني لأن أنزعج منها.
يومٌ طويلٌ شاقٌ قضيته في الدراسةِ والتجوّل تحت الشّمس، لأعود منهكاً وأغفو طويلاً وكأنني فاقدٌ للوعي.
قبيلَ المغربِ أيقظتني رائحةُ الطعامِ اللذيذِ، وتوقعتُ كما العادةِ أن أقومَ بمهمّتي السّنوية التي بتُّ أمقتها، وأرغبُ بالتمردِ عليها، فلم تعد لي رغبةٌ بالعمل مثل نادلٍ عند تلكَ المرأةِ المتطلبةِ، فأوصلُ طعامَ الإفطارِ ساخناً إليها كلّ مساء.
عجيبٌ أمرها، مازالتْ قويّةٌ كفايةً لأن تأتي وتأخذَ حصّتها اليوميةَ، بل إنه بمقدورها أن تطهو وجباتٍ شهيّةٍ، لكن أمّي تصرُّ على تدليلها، وغالباً ما أقعُ أنا ضحيّةً لهذا الدلال!
حضّرتُ مرافعتي ضدَّ جارتنا، ودخلتُ المطبخَ وألقيتُ بمهارة خطبتي التي رتبتها سريعاً في عقلي...
– أعتذرُ يا أمي عن أخذِ الطّعامِ لتلكَ المرأةِ، لا أحبُّ أن أذهب إليها ولا أن ألتقي بها في أي مكانٍ.
سئمتُ منها ومن حلواها التي تقدمها لي وكأنني طفلٌ مدللٌ، ولا تكتفي بهذا بل إنها تناديني دائماً أنُّوس... أنُّوس!
عجباً لها؛ سأبلغ العشرين قريباً ولن أسمع منها اسمي بشكلٍ صحيحٍ أبداً.
إنها تنسى أنني في الجامعة، وتسألني عن أحوالي في المدرسة، آه يا أمي كم أكره الذهاب إلى هناكَ في هذا الوقتِ.
لمَ أنا الضحية دائماً؟ ابعثي أحداً من إخوتي، فأنا أشتهي أن أتلذذَ بالطعامِ ولو لمرّةٍ واحدةٍ.

أمي... اعذريني... فلي أعوامٌ وأنا أتمنى هذهِ الأمنيةِ، رجاءً لا تقنعيني بعكسها.

قطعتُ مرافعتي إذ أنني لم أجد أيةَ معارضةٍ من قبلِ أمّي، فقد كانت تجلسُ واجمةً تفكّرُ وكأنها مسافرةً إلى عالمٍ آخر.

بدا لي لوهلة أنها لم تسمعْ حرفاً من كلامي، فخرجت من المطبخ ممتعضاً، وأخذتُ أنظرُ من النافذةِ إلى الشّمسِ مسافرةً نحو الغروبِ بجمال.

هدأت نفسي قليلاً، وهي تراقبُ ذلكَ المنظرَ البديعَ، ولا أدري كيفَ هطلت ذكرياتٌ كثيرة لي مع تلك المرأةِ ربما أوحى لي بها منظرُ الغروب!

تذكرتُ كيف كانت تعتني بي مثل طفلها الصغير المحبب، تجلسني على حجرها، وتقدمُ لي أطيبَ ما لديها من حلوى وطعامٍ. لقد جعلتني فرداً في أسرتها، فأنا أحفظُ كل مكانٍ في منزلها شبراً شبراً، أحفظ أيضاً أسماءَ أولادها المسافرينَ وكلّ أقاربها، وكم جلست أستمع لحكاياها عنهم في الأمسيات الباردةِ قربَ المدفأةِ، وكم حدثني عنهم قصصاً جميلةً لا تُنسى.

لقد فكرتُ طويلاً بتلك المرأةِ كم أنها تشبه جدتي بحنانها الآسرِ وحبّها ورقّتها، وأيقنتُ بأنه قد لا يحبني أو يدللني أحد ما بقدرِ ما تفعل!

شعرتُ بأنني ارتديتُ قناعَ الشريرِ طويلاً وظلمتها، وأخطأتُ كثيراً في حقّها.

إنها الآن تجلسُ وحيدةً في غرفتها الباردةِ، تنتظرُ الطعامَ السّاخنَ كي يدفئ جسدها المريض، ولعلها لم تسمعْ كلمةَ تهنئةٍ واحدةٍ بالشهرِ

الفضيلِ.

"يا إلهي كم أنا مذنبٌ في حقها!"، قلتُ ذلكَ في نفسي، وبخطواتٍ خجلى عدتُ إلى المطبخ ورتبتُ لها أطباقَ الطّعامِ بعناية، وقطفتُ لها وردةً بيضاء من حديقتنا، ورتبتُ هندامي ورسمت ابتسامةً لطيفةً لم تعتد عليها تقاسيم وجهي منذ زمن.

ثم ناديتُ على أمي بصوتٍ حنونٍ وقلت لها:

– سآخذُ هذه الصينيّة للخالة...

أوقفني صوتها متهدجاً:

– انتظر يا أنس لا تذهب لن تفتح لك.

– لماذا يا أمي هل أخبرتها أنني غاضبٌ منها؟ لقد كانَ كلامي مجردَ حماقاتٍ فلا تكترثي له؛ سأذهب...

– قلتُ توقف؛ لن يفتح لكَ أحدٌ البابَ أبداً.

لقد توفيت جارتنا صباحَ اليومِ وخرج أهلُ الحيّ كلهم في جنازتها فيما كنتَ أنتَ في جامعتكَ. عظّمَ الله أجركَ يا حبيبي في جدّتك الثانية.

جفّت الكلماتُ في حلقي، ودارت بي الدنيا وجلست كتمثالٍ على الأريكةِ، ومدافعٌ بقنابلَ ثقيلةً تضربُ رأسي، لا تشبهُ أبداً مدفعَ الإفطار!

قُلوبٌ لا تعرفُ الحبّ

وقعَ نظرهُ على رزان؛ عندما وقفتْ بينَ جموعِ الطلابِ؛ تجيبُ واثقةً على أحدِ الأسئلةِ الصّعبةِ التي طرحها المعيد. رمقها بنظرةِ إعجابٍ، وتمنّى أن تكونَ لهُ وحدهُ، يباهي بها أقرانهُ، فيتميّزُ عنهم برفقتهُ لأجملِ وأذكى فتاةٍ في الكلّيّةِ، ويثبتُ تفوقهُ بحسنِ الانتقاءِ، ويحسدهُ عليها القريبُ والغريبُ.

حادثها بودٍّ فأنصتتْ طويلاً إلى كلماتهِ، فإذا بها سحرٌ عذبٌ يتسلّلُ إلى وجدانها، ولغةُ صدقٍ تنفذُ إلى كيانها.

وتأمّلت عينيه فإذا بهما تحملانِ بريقاً غريباً يجذبها إليهِ، فتعودُ مرغمةً إلى قلبهِ كلما فكّرت بالانسحاب.

وتوالتِ اللقاءاتُ بينهما، ونما حبّهُ في قلبها الصّغيرِ واستوطنَ، فما عادتِ الحياةُ تحلو إلا بوجودهِ، ولا عاد للبسمةِ معنى إلا في حضورهِ. وغدا فارساً لأحلامها، ذلكَ الفارسُ المنقذُ الذي يحملها على حصانِ أحلامه، من بين حشودِ الفتياتِ الرائعاتِ، ويقلّدها مليكةً على عرشِ حبّه. يبحرُ بها إلى المستقبلِ على موجٍ من الأمنياتِ السّعيدةِ، تارةً يتخيّلُ معها عُشَّ المستقبلِ، فيتخيران معاً شكلهُ وهيئته، وألوانَ الطلاءِ لكلِّ غرفةٍ، ونوعَ الأثاثِ في كلِّ زاويةٍ، ويحلمان...

وتارةً يسمعها قصائدهُ الهائمة بها، فيشعرها أنها قد أصبحت بالنسبةِ إليهِ الماءَ والهواءَ، فإن غابت فهو المتألمُ المحزونُ، وإن حضرتْ، فكل الدنى له دانت...

ومضتِ الأيام، وذاعت قصّةُ الحبُّ بينهما بينَ طلابِ الكلّية، وتناقلتها الألسنةُ ما بينَ معجبٍ ومنتقدٍ وحاسدٍ، لكنهما لم يأبها بكلّ ما يدورُ حولهما، فقلبيهما كطيورُ حبٍّ راحت ترفرفُ في سماءِ جنّةٍ وارفةٍ.

تنتظرُ بلهفةٍ لحظةً يعلنانِ للعالمِ بأنّ ارتباطهما قد غدا موثّقاً بعقدِ زواجٍ، وبأن حبّهما تأطّرَ بمباركةٍ شرعيّةٍ تقطعُ كلّ لسانٍ قد يتعرّض لهما بسوءٍ...

وقبيلَ عيدِ الحبِّ؛ وأجواءُ الكليةِ مفعمةٌ بالمرحِ، أتاها غائمَ الوجهِ محزوناً، تتثاقل به الخطى، وتنعقدُ في داخلهِ الكلمات فلا تجدُ للخروجِ سبيلاً.

ظنّتهُ مريضاً ، فأسقطَ في يدها. وأخضعتهُ لتحقيقٍ طويلٍ، فأخبرها بعد عناءٍ:

– تعلمين كم أحبكِ يا مليكتي، ولكن ما العملُ وأهلي يرفضونكِ أن تكوني لي زوجةً؟!

وافتعل البكاءَ فأبكاها، وأشعرها بأن حبالَ الوصلِ راحت تتقطّعُ دونَ حولٍ منهُ ولا قوّةٍ، وبأنه لن يتمكنَ أبداً من أن يراها أو تراه. وغادرَ مبتعداً وتركها تتجرّع مرارةَ الفقد، لحبٍ سكنَ كلّ ذرّةٍ من كيانها.

في صباحِ عيدِ الحبّ؛ تأرجحتْ خطاها بينَ ذهابٍ إلى الكلّيةِ أو بقاءٍ في المنزلِ حداداً على مأساتها. حدّثها قلبها بأنّها قد تراه، وبأنها قد تجدُ معه حلولاً تقنع والديه بأن يقبلا بها زوجةً لوحيدهما، فمضتْ يحدوها الأملُ، وتدبُّ في أوصالها معاني الحياة.

وأمامَ بوّابة الكلّية، فوجئت بهِ واقفاً ينتظرها، في عينيهِ يلوحُ كلامٌ جديدٌ، وابتسامةُ أملٍ واسعةٍ تختالُ على شفتيه، وفي يديه وردةٌ حمراءُ راحت تتباهى بجمالها، فأقبلت إليه...

ألقى التّحيّة وقدّمَ لها الوردةَ، وعلبةً مخمليةً، ومضى هذه المرّةَ مبتعداً، ولكن... بخطواتٍ واثقة..

تلفتت حولها بوجلٍ، وابتعدت عن الأنظارِ خوفاً من أن يسمعَ أحدٌ خفقاتِ قلبها المضطربِ.

وخلفَ شجرةٍ منزويةٍ، فتحتْ العلبةَ؛ فإذا بها تحملُ قلادةً جميلةً نُقشَ عليها أولُ حرفٍ من اسمها، وبطاقةً كتبَ عليها بخطهِ الجميل: "غايةُ مناي وسعادتي ارتباطي بكِ في عيدنا، هل تتزوجينني عرفيّاً؟"

ارتعدتْ أوصالها فرحاً ورهبة، وعادت إلى بيتها تقبضُ على الورقة خشيةَ أن تتفلّتَ من بينِ يديها، وهي تحملُ الحلمَ الورديّ الذي تمنتهُ طيلةَ حياتها.

لحظاتٌ مرّتْ مثل عامٍ؛ ذاقت فيها الخوفَ والتردد، وشربتْ من لوعةِ الحبّ حتى ثملت.

زواجٌ عرفي يعني أسراراً... خوفاً... وتكتّماً...

لكنها عادتْ وأكّدت بأنها لن تلبث إلا أن تكونَ مشاعرَ مؤقتة، تمضي عندما يُقنع أهله بها، وسيوافقون بلا شك عندما يريهم عقدَ الزواج.

أشهرٌ ستةٌ مضت، والحلمُ غدا فيها حطاماً!

العالمُ الورديُّ انقلبَ جحيماً، والارتباطُ تخلخلت حلقاتهُ وتفككت، والحبُّ غدا باهتاً بلا معنى. ورزانُ مازالت تعاني الأسى، وتكتمُ في داخلها سراً كبيراً، بحرٌ من الحزن يكاد يُغرقها. والدّموع بين الفينة والفينة تفضحها.

اختفى فارسها عن مسرحِ الحبّ أيّاماً، ثمّ عاد بوجهه الحقيقي.

ببساطةٍ همسَ لها، كما كان يهمسُ دائماً بعباراتِ الحب:

عزيزتي رزان، لقد مزّقتُ العقد الذي جمعَ بيننا، ووافقتُ والديّ على الارتباط بابنة خالتي، وأنا في قرارةِ نفسي راضٍ عن تصرّفي تمام

الرّضا، فكيفَ أكمل حياتي مع ساقطةٍ مثلك؟!
احتفظي بالقلادةِ عربونَ ودٍّ لأيامنا الخوالي، ولكن...انسي أمرنا إلى الأبد.
أعوامٌ قليلةٌ مضت، ونسيت الكلّية فتاتها الذكيّة الحلوة. غابت منذ ذلك اليوم ولم يعرفْ أحدٌ عنها شيئاً.
وفي ذاتِ الوقتِ طافت والدتها في الحيّ الفقيرِ الذي تقطنهُ، تطرقُ أبوابَ النّاس، تطلبُ مالاً قد يعينُ لعلاج لابنتها الشّابة التي غرقتْ في غيبوبة، كلما استفاقتْ منها رددت كلمات الحبِّ بلهفةٍ. وقد أخبرتها مشعوذةٌ ذات يومٍ، بأنّ جنّيّاً قد أحبّها، فخطف قلبها، فهي الآن تطوفُ في عالمِ العفاريتِ، ولا فكاكَ إلا بعدَ سبعِ علاماتٍ...
قد تكونُ العلامةُ دلالةَ ساعةٍ، وقد تكونُ دلالة يومٍ، أو شهرٍ أو سنةٍ... من يدري؟! المهمّ بأنها ستشفى دونَ شكٍّ من تلبّس عفريتِ الحبّ.

فيي خبَـايَا الذّاكِرة

لولا الحياءُ والكبرياءُ لسمحتُ لدموعي بأن تنسكب؛ فتغرقَ الأرصفةَ والسّاحات، وتمتدّ إلى كلّ البيوتِ، كامتدادِ السّيلِ في اليومِ العاصفِ، حين يقتحمُ هدوءَ النّاس، ويأخذهم على ذاتِ غرّة، فإذا بهِ قد أغرقهم، واستبدّ بهم فأتلفَ أثاثهم وبضائعهم، وأتى على خيراتهم فمحقها، فكأنها لم تكن بالأمس.

حرقةٌ مؤلمةٌ تستبدُّ بكياني، ووحشةُ روحٍ، وما أقساها وهي تنهشُ أجزائي، فتحيلني أشلاءَ مبعثرة. مع كلِّ لحظةٍ أقضيها جوّالاً مع صاحبِ هذه العربةِ، وقد نالَ منّي اليأسُ والذلّ ما الله به عليم، حتى كدتُ أجزمُ بأن الخيرَ قد تلاشى من قلوبِ البشرِ، وبأنّ ما يحصلُ لهم من حُروبٍ وانتكاساتٍ أقلّ عقابٍ يستحقّونه لإهمالهم، وسوءِ تعاملهم مع حضارتهم.

صعبٌ عليَّ أن أعترفَ بهزيمتي، ولكنني الآن ببساطةٍ أفعل، جنديٌّ مهزومٌ أنا، قد نُفيتُ من أرضِ المعركةِ، لأنّ قائدي أخطأ في تحديدِ الهدفِ، ورسم خارطةً فاشلة؛ حدّد عليها مواقع للهجوم، وحين بدأتِ الحربِ، انسحبَ العدو، بعدَ أن اتفق مع أطرافٍ خائنةٍ على الغدر، فأوقعوا بي ورفاقي في شراكٍ قاتلة.

إنني الآن مهزوم، وأخيراً بتُّ أفهمُ معنى الهزيمةِ وقد مرّ بي طويلاً في صفحاتِ عمري، لكنني ما كنتُ لأفهمه أبداً بهذه الطريقةِ، وما كنتُ لأتلمّسَ فيه العمقَ حتى تجرّعتُ مرارتها، ونالني من أوجاعها الكثير.

كانت ولادتي في بيتٍ أدبيٍّ عريقٍ، اهتمَّ صاحبهُ على مدى عقودٍ بكلّ ما يخصّ الآدابَ والحكم والأخلاق.

عقلهُ الحصيفُ قد حوى من ثقافاتِ الأممِ والشّعوبِ بساتينَ مورقة؛ قد امتدت خضرتها عبر حبره الزكيّ المعطر بالجمال، إلى بياضِ الورق، فكانت المساحاتُ هناك شاسعةً لتحكي الرّوعةَ والبهاء، فتواصلت أياماً وشهوراً، حتّى وضعت نقطةُ السّطرِ الأخير معلنةً تمامه، وولادتي أنا.

انتقلتُ بعد ذلكَ على الفورِ إلى المطبعة، كنتُ دائمَ الفخرِ على أقراني باسمي الجميلُ الذي انتقاهُ مؤلّفي العزيز، وكم قرأتُ من نظراتِ حسدٍ في عيونهم، خاصّة حين قدّموني عليهم في الطباعةِ، وآثروني بغلافٍ جميلٍ، سهرَ على تصميمهِ رسّامٌ محترف.

حينها مكثتُ شهراً أنتظرُ النُّور ليملأ عالمي؛ وما لبثتُ فتحولتُ إلى مئاتٍ من الأجسامِ المستنسخةِ عنّي، والتي تمَّ توزيعها في كلّ مكان. يصعبُ على المرءِ أن يتذكرَ كلّ ذلكَ في لحظةٍ واحدة، وأن يتشظّى في أمكنةٍ كثيرة، فتكونُ له أرواحٌ مختلفةٌ، تتمثّلُ في كلِّ شخصٍ يلتقيه، وهكذا كنت...

نشوةٌ تغمرني وأنا أذكرُ التّفاصيلَ التي ماتت، رغم اعتقادي بأن أحداً لا يذكرها سواي. تلكَ المعلمةُ التي ارتسمت على عينيها علامات الدهشةِ حين رأتني على واجهةِ إحدى المكتبات، ولم تمضِ لحظاتٌ حتّى صرتُ ملكاً لها. تجلسُ إليَّ كلَّ ليلة، تتحاورُ روحانا، تعيشُ معي عالماً جديداً، وأعيشُ أنا في دنيا عينيها الجميلتين، وأسمحُ لها بسرورٍ أن تنقشَ بعض الملاحظات على وجهي، فأطلعُ عليها وأبتسم، وقد أثمرت سطوري في عقلها، وتفتحت براعمي في قلبها، ففهمتْ ووعت، وانطلقتْ تسكبُ كلَّ خيرٍ تعلّمتهُ في أذهانِ الصّغار، فإذا بسطوري تنتقلُ من عقلها إلى عقولهم، وإذا بي أسكنهم من دون أن يعرفونني أو حتّى يسمعونَ باسمي، فأسعدُ في ذلكَ الحالِ، وتشرقُ روحي بالفرح.

وأذكرُ الشّاب الجامعي الذي أتى إلى المكتبةِ ليكملَ بحثاً، وتلعثمَ كثيراً وهو يسألُ عن عناوينَ تساعدهُ في إتمامه. يومها ناديتهُ طويلاً،

ولوّحتُ له كثيراً، حتّى كللتُ وبُحَّ صوتي، ورحلَ دونَ أن يكترثَ لأمري، فتحسرتُ عليه ومن أجله، وانتظرتُ من يقدرني أكثر منه. ولعلَّ أسعد لحظاتِ حياتي هي تلكَ التي قضيتها في الحيِّ الفقيرِ، يومَ تناولت نسخةً منّي امرأة عطوف، وغطّتني بغلافٍ جميلٍ لمّاع، وأهدتني إلى صديقتها المريضة ومضت؛ لتتركني وإياها نتسامرُ حتى الصّباح.

يومها حظيتُ بالقبلةِ الأولى، وشعرتُ بأهميتي، وبأنّ داخلي أجمل بكثيرٍ مما أتخيله، وأنا أسمعُ همساتِ الدهشةِ تتسللُ إلى أذنيّ من صوتها الخفيض، في غرفةٍ تضمُّ عشرةَ أشخاصٍ كانوا يغطّونَ في سُباتٍ عميق، وكنت أقاومُ النّعاسَ لأسهرَ إلى جوارها. ولا أنسى لحظةً أغلقتني لتحكي لي قصّتها فأسمعها؛ حروفها ما زالتْ ترنُّ في أذني...

– أيّها الكتابُ الحبيب، يا من وهبتني اللحظاتِ الأسعد في حياتي، وأسبغتَ عليَّ من كرمِ منادمتكِ، وطيبِ مجالستكِ الخيرَ الوفير. لحظاتي معكَ دينٌ كبيرٌ لا يمكنني أن أوفّيه حقّه، ولو علمتَ ما قدّمتَ لي لتباهيتَ وافتخرتَ بنفسك. إنني أصارعُ الموتَ منذُ شهور... كلما حلَّ الظلامُ اعترتني وحشةٌ شديدةٌ وضاقتْ بي الدنيا بما رحبت، ورحتُ أبتهلُ إلى الله تعالى بأن يأخذَ منّي روحي في أقربِ وقت. فلا طاقةَ لوالديَّ على تسديدِ ثمنِ الدّواءِ، ولا قوّة لقلوبهم على احتمالِ آلامي ومرضي. كلما انقضت ليلةٌ عليَّ في هذه الظلمةِ، شعرتُ بأنني في قبري، فاستعبرتُ وبكيتُ عمري الذي مضى، وما آلت إليه أحوالي. ولكنني الليلة سافرتُ معكَ إلى جنّةٍ من جنّاتِ الدنيا، ونسيتُ

لواعجَ حزني، وكلّ سهري وآلامي. فالشّكرُ لكَ أيّها الحبيبُ شكراً يمتدُّ ما كُتبت لي حياة.

ولكنَّ اللحظاتِ السّعيدةِ لا تدومُ طويلاً...

فقد مضت أعوامٌ طوالٌ عليَّ وأنا في هذهِ الحياةِ بين أيدي البشر. في تلكَ الأعوامُ ولدت كتبٌ جديدةٌ اقتناها النّاسُ وأحبّوها على الرَّغم من سُخفها، وجعلوا لها مكانَ الصّدارةِ في مكتباتهم الفخمةِ، وصارت محورَ أحاديثهم وأسمارهم، ونُسيتُ في زحامِ الحياةِ، وألقيَ بي في صُندوقٍ مهملٍ قُربَ حاويةٍ منسيَّة.

يومها بكيتُ طويلاً حتّى فقدتُ الوعيَ من فرطِ الألم، وفقدتُ الإحساسَ بالزّمانِ والمكانِ، ولم أعد أسمعُ خطواتِ المارّةِ يسيرونَ قُربي، ولما صحوتُ جزعتُ إذ ظننتُ لوهلةٍ بأنني في طريقي إلى المحرقةِ فالتزمتُ الصّمتَ الموجعَ، واكتفيتُ برؤيةِ رفاقي يبكونَ ويتواصونَ بينهم بالخير.

ورحت أودع حروفي لعلي أستمدُّ منها القوّة، فأتذكرُ بها ومعها تاريخي العظيم، وأمجادي التليدة.

وغفوتُ أحلمُ في مستقبلٍ يأتي ليعيدني إلى الصّدارةِ، فأسكنُ القلوبَ والعقول، ويكونُ حضوري فاعلاً قوياً لبناءِ النّفوسِ الطيبة. ولكن الصندوق فُتح أخيراً، ونظرتُ إلى الأعلى فوجدتُ النجومَ تلمعُ في السّماء، ورأيتُ القمر هلالاً رائعاً فابتهجت وتفاءلتُ خيراً. ولكن الفرح تلاشى إذ شعرتُ بالأرضِ تهتزُّ من تحتي، وإذا بي أسيرُ عليها دونَ أن يحملني أحد. وإذا بيدِ رجلٍ غريبٍ تمتدُّ إليَّ فتنزعُ عنّي صفحاتي، فكأنها تنزعُ روحي، وإذا به يلفُّ بها أكواز الذرة المشويّة،

يبيعها لأحترق، وتعلقُ في فمي ذرّات الملحِ فأوشكُ على هلاك. يومها أيقنتُ بأنها النهاية، وبأنها أتعسُ نهايةٍ ممكنةٍ لكتابٍ في منزلتي وقدري، إذ أن المطافَ قد انتهى بي على عربةِ بائع الذرة. رحتُ أودّع صفحاتي الرّاحلة بدموعٍ وألم، وأنا أراها تتوزّعُ في سلالِ المهملاتِ، وعلى الأرصفةِ المنسيّةِ، والحاراتِ الضيّقة. يومها ظننتُ بأنني أصارعُ الموت والفناءَ لا محالةَ، لولا أنني سمعتُ طفلاً يقرأ بعضاً من سطوري، في صفحتي التي ضمّت كوزَ ذرة اشتراهُ للتو.

قراءتهُ كانت مؤثّرةً جداً لدرجةِ أنّ أمه التفتت إليهِ، وتناولتْ منه الورقةَ، وراحت تقرأ هي الأخرى بإعجابٍ أعاد لي الحياةَ من جديد.

– من أيّ كتابٍ هذه الورقة يا أمي؟!

– ياه... إنها من كتابٍ جدّ قديمٍ ورائعٍ كانت جدتي تقرأ لنا فيه.

– كم أودُّ الحصولَ عليه...

– سأبحثُ لكَ عنهُ يا ولدي، لأضعه في أبرزِ مكانٍ من المكتبةِ، وسأقرأ لكَ منهُ كلّ ليلةٍ قصّة.

– أرجوكِ يا أمّي... دعينا نشتري كوز ذرة آخر، واطلبي من البائعِ أن يلفّه هذهِ المرّة بصفحتين.

خلفَ الكواليسِ

صمتَ الجميعُ؛ واتجهتْ أنظارهم نحو المنصّةِ ينتظرونَ دخول

الأستاذةِ المحاضرةِ حنان.

ما إن دخلت حتى ضجت القاعةُ بالتصفيقِ، وسمعتُ كلمات الثناءِ تنثالُ من الأفواهِ المعجبةِ، فالجميعُ قد أتوا من كل حدبٍ وصوبٍ ليتلقوا علمَ التربيةِ على يديها، ولكم تابعوها في الصحف والمجلات، وعلى شاشةِ الرائي، عبر مقابلاتٍ لا تُحصى أو تعدّ.

حيّتهم بودٍّ بادٍ، ووقفت بهدوءٍ تعلو وجهها ابتسامة دافئة، وبصوت رقيق بدأت محاضرتها بكلماتٍ بالغة التأثيرِ...

– ليست التربيةُ شعاراتٍ نحملها، لأنها في الحقيقةِ أساسُ الحياة...

أعترفُ... لقد سرقتْ اهتمامي كلياً وهي تتحدثُ بلغةٍ راقيةٍ عن تربية الطفلِ، ودورِ الأسرةِ في تكوينهِ. لقد حضرتُ الكثير من الندواتِ والمحاضراتِ إلا أنها لم تكن أبداً بمثل هذا الجمال.

على الرَّغم من شهرتها الواسعة، إلا أنها المرة الأولى التي أتشرفُ بالحضور لها. وكم تمنيت لو أنني قد عرفتها من قبل لأنمي مداركي من بحر علمها الواسع .

وتابعت...

– تتحطم شخصية الطفلِ من أول كلمةِ إهانة تتوجه بها والدتهُ إليهِ، فتتزعزعُ الثقةَ في داخلهِ، وتكبرُ العقدةُ وتنمو معهُ، فيغدو فرداً فاشلاً في المجتمعِ.

قلتُ في نفسي:

– كلماتها منطقيةٌ، مدعمةٌ بالأدلةِ والشواهدِ، لا غبارَ عليها فهي في صميمِ الحياة.

أطلقتُ زفرة حزنٍ وأنا أفكر بواقعِ الأمهات اللواتي تحوّلن في هذا

العصرِ إلى أداةِ هدمٍ لقلوب الصّغار...
وكم تمنيتُ لو أنني أستطيعُ نقل المحاضرةِ على الهواءِ مباشرةً لكل القنواتِ الفضائيةِ، لأرغمَ كل أمٍ على الإنصاتِ، أو أستطيع أن أنقلها عبر الشاشات الكبيرة المنتشرةِ في الأسواقِ، أو حتى أن أنسخَ مقاطعَ منها فأرسلها عبرَ الجوالِ.
وأنصتُّ مجدداً...
– العنفُ لا يولدُ إلا عنفاً، واللغةُ الوحيدةُ التي يمكن للأمِ أن تؤثرَ بها إيجابياً على الطفلِ هي فقط لغةُ الحبِّ.
همهمتُ في نفسي:
– لغةُ الحبِّ، وما أروعها من لغةٍ إن سادتْ بين أمٍ وطفلها، ألا ليتَ كل الأمهات مثلها ..
مضتْ ساعةٌ من الوقتِ ثمينةٌ غاليةٌ، أشعرتني بأنني ولدتُ من جديدٍ، وقد منحتني الكثيرَ من الأملِ في تغييرِ أسلوبي التربوي معَ صغاري.
شعرتُ أن كلمةَ شكراً هي أقلُّ ما يمكنني فعلهُ لهذه التربويّة الرائعة، اخترقتُ الحشودَ متجهةً إليها، أحاولُ تنسيقَ الكلماتِ في داخلي لعلها تليقُ بها.
سألتُ عنها منظمة المحاضرة فأخبرتني أنها في الغرفة الجانبيّة تستريحُ قليلاً لتعود للإجابة عن تساؤلات الأمهات، ولتوقع على كتابها الجديد في تربية الطفل لكل من ترغب.
سريعاً حجزتُ نسختي الأولى من الكتاب، ونظرتُ في الساعة.
– لا شك أن زوجي الآن ينتظرني في الخارج، الوقت داهمني حقاً ولن أستطيع الانتظار.

طرقتُ الباب فأدخلتني مرحبة، شكرتها وكم كانت ممتنة، لكنني كنت الأسعد وأنا أحظى بتوقيعها الفريد وإهدائها الثمين على الكتاب، رنَّ هاتفها الخلوي ليقطع حديثنا الشائق، وقفت أمامَ نافذةِ الغرفةِ تتحدثُ بصوتٍ منخفضٍ وتلتفتْ نحوي بحذرٍ.

أدركتُ أنه حديثٌ خاصّ فاستأذنتُ للرحيل.

أومأت برأسها مودعة برقّة بالغة، وغادرتُ.

بعدَ خطواتٍ أدركت بأنني نسيتُ الكتابَ في الغرفةِ، وعلى عجالةٍ دخلت فإذا بالصوتِ الرقيقِ قد استحالَ إلى عاصفةٍ، وإذا بملامحها الرقيقةِ تنقلبُ شراً.

وقفتُ واجمةً وكلماتها تخترقُ سمعي كالرّصاص...

– لن أكون أمكَ يا سامر إن لم أعد بعدَ قليلٍ لأضربكَ وأختكَ ضرباً مبرحاً لقاءَ شجاركما معاً، وسأحرمكما من نزهةِ الغد، ومن المصروفِ والحلوى لمدةِ أسبوعٍ أيها الطفلين الغبيين الأحمقين!

انسحبتُ فوراً ورحتُ أفكر؛ هل يخرجنا الصغارُ عن أطوارنا أحياناً، فنلقي بمبادئنا عرض الحائط؟!

ربما...

ومضيتُ في دربي تنتابني الحسرة وتساؤلاتٌ كثيرةٌ حولَ الكواليسِ وما ورائها.

– ألن يكونَ جميلاً لو أنها أضافتْ مشهدها الواقعيّ الأخيرُ لتتكاملَ المحاضرة؟!

شَظَايَا بَغدَادِيَّة

(١) صُورةٌ تذكاريَّة

قضى نصفَ النّهارِ يفتّشُ في صَناديقِ الغُرفَةِ المُهملةِ، وصوتُ سُعاله يعلو مع تصاعدِ الغبارِ بين الأشياءِ القديمة، وكانتْ هي في الخارجِ تَرقُبه، وقلقٌ يزلزلُ كيانها.

تروحُ وتجيءُ كأنما تقف أمام غرفة العناية المشددة، وزوجها السبعينيُّ مصرٌّ على تنفيذِ رَغبته.

نَفذَ صبرُها وصرخت به:

– إلى متى ستظلُّ تبحثُ عنهم؟ لقد رحلوا ولن يعودوا يوماً إلى بغداد.

خرجَ منتصراً وبيده صورة لأفراد العائلة الواحد والخمسين. بطرفِ كمّه مسحَ عنها الغُبار، ناداها لتحدّق معه في وجوههم السّعيدة.

وقالَ وفي صوته سكنَ الحنينُ:

– يمكنني الموتُ الآن مطمئناً، وسقفُ أجدادي يظلّني، وعائلتي كلها معي!

(٢) الصُّقور

أسرَع إلى داخلِ غُرفته يعدو بخفّة؛ وقد أخفى شيئاً ما تحت ثيابه. أغلقَ البابَ بسُرعة، فتبعتهُ عيناها تنظران من ثقبِ المفتاح. احمرَّ وجهها وصرختْ به غَضْبى:

– أتنهبُ أرضكَ وتسرقُ أهلكَ من جديد أيها الولدُ الطائشُ؟

أجابها من خلف الباب:
– لكنّها آنيةٌ ثمينةٌ مهملةٌ في مبنى آيلٍ للسّقوط.
ركلت الباب بقدمها فأوجعتها، وبألمٍ قالت لأخيها:
– أعدها إلى مكانها فنحن لم نُخلق غربانا تقعُ على جيفة، إنما خلقنا الله صقوراً تحلّقُ فوق هاماتهم، لتقتلعهم من أرضنا... وسيبقى الخيرُ لنا!

(٣) غُربة

في غربته البعيدة وقف أمام النّافذة يتأمل صفاء السّماء...
لحظات... ولمع شهابٌ في الأفق، عكس بريق الدمع على خدّيه.
ليتذكّر بحسرة سماءً أخرى في الوطن، تحتفلُ كل ليلة بوابلٍ من الشّهب المُحرقة.
أسرعَ إلى القبو، وأشعلَ شمعةً في المكان، نادى على زوجتهِ، وحملَ طفله الرّضيعُ، وابنتيهِ الصغيرتين، دثّرهم بأغطيةٍ كثيرةٍ، وقالَ بوجلٍ:
– بغدادُ الآن تعاني من القصف!

(٤) مشط عاجيّ

نظرت في مرآتها الصّغيرة طويلاً، وأمسكتْ مشطَ جدّتها العاجيّ، ومررته على شعرها الحريري الفاحمِ، وترنمت بأغنيةٍ قديمةٍ، كانت تسمعها من أمها أيّام الطفولة، وقالت بفرح:
– تجمّلي كلّ يوم أيتها الحسناءُ، واستعدي لأميركِ القادم إليكِ على حصانهِ الأبيض.

قريباً... سيحررُ الوطنَ ويأتيكِ خاطباً، وستهدي له وردةً من شجرتكِ التي ستنمو من جديدٍ.
وسيُعمرَ أبناؤكِ العراقَ مجدداً، عندما يطردُ فارسكِ الجندي المحتــلّ الأخير.

(٥) روحٌ أسيرة

حاولت الأم أن تثني صغيرتها عن الإنصاتِ لأخبار القتلى والجرحى في التلفازِ، لكن الصغيرةَ كانتْ مرغمةً أن تغفو وتصحو كل صباحٍ على أصوات القصف، وأخبار الضحايا في وطنها الأسير. ذاتَ مساءٍ، حملتْ دميتها الجميلةَ وهي تبكي؛ لفّتها بخرقةٍ بيضاءَ، وضعتها في حُفرةٍ صغيرةٍ قرب المنزلِ، وأهالت عليها التُّراب، وازدادَ نحيبها...

زلزالٌ عابرٌ

أرادَ أن يعلنها ثورةً ضدهم، أن يوقدَ في جدرانِ المنزلِ المتهالكةِ ناراً كبيرة، ليحرقهُ بمن فيه... وأن يستمتعَ بتعذيبِ كلِّ شخصٍ فيهِ على حدة، وببرودةِ أعصابٍ.
كل ليلةٍ كانَ ينسجُ أحلامهُ السرّيّة والخاصّةَ في الظلمةِ، وبتكتمٍ شديدٍ كان يرحلُ بهواجسهِ بعيداً آمراً إياها بالتزامِ الصّمتِ كلما مرّت فوق حدودهم، ليبني سجنهُ الكبير.

ما زالَ يذكرُ الليلةَ الأولى لتأسيسه، وكيف ينساها وهي تحملُ تاريخَ إهانتهِ المنقوشِ بعمقٍ في ذاكرتهِ، يومَ أن تلقى من والدهِ صفعةً أمامَ رفاقهِ بسببِ تأخره في العودةِ إلى المنزلِ. كانت تلكَ الصفعةُ بدايةً لجلسةِ تعذيبٍ طالت حتى المساء.

لم ينسَ أبداً قلبه الصّغيرُ وهو يخفق بشدّةٍ فيترددُ صدى خفقانهِ بين ضلوعه.

عندما طرقَ البابَ، أخبرهُ حدسهُ بأنه لن يُرحم، وبأنه الآنَ مثل كبشٍ سيذبحُ بسكينٍ ثلمةٍ، وسيسلخُ عنهُ جلدهُ حيّاً، وبأنه سيصرخ كثيراً بصوتٍ مكتومٍ، ولن يسمعهُ أحد، وسيبكى بلوعةٍ، ولن يمسحَ دموعهُ مخلوقٌ، وبأنهُ سيتمنى لو قربت لحظةُ موتهِ، لتسبقَ لحظةَ المواجهةِ، ولكنْ عبثاً.

أنّى لها أن تمضي دونَ أن تحفرَ أخاديدها على جلدهِ المنكمشِ. وأنّى لها أن ترحلَ وحيدةً دون أن تأخذَ معها صويحباتها شاهداتٍ على تعذيبه.

وهو الذي ذاق كأسَ الألمَ حتى ثملَ، وهو الذي حفرَ قبراً لفؤادهِ، وردمَ عليهِ الترابَ، يومَ توجّبَ عليهِ أن يميتَ شعورهُ.

سجنهُ الكبيرُ كان يتطاولُ معَ الأيامِ، ليغدو بناءً ضخماً، كلّ حجرٍ فيه يحملُ توقيعهُ، وكل سوطٍ فيهِ قد رُسمتْ عليهِ بصماتهُ، حتّى الأغلالَ أرادها مميّزةً يتوجها اسمهُ.

وعندما أنهى بناءَ السّجنِ أدركَ بأنه قد غدا يتيماً منذ لحظةِ إنشائهِ. تخيّل والدهُ وهو مقتادٌ إليه، وهو الذي اقتادهُ إلى يُتمه، ورأى والدتهُ تدخلهُ، لتجلسَ في زنزانتها الخاصةِ بها والتي تحتوي على بعضِ

وسائل الراحةِ، باعتبارِ أن تهمتها أقلّ من تهمةِ والدهِ، فهي لم تتواطأ معهُ، لكنها سكتتْ عن ظلمهِ فلم تجرؤ عن الدفاعِ عنه.

قالها في نفسه:

– فلتسكن إذاً زنزانةً موحشةً لا يخففُ عنها أحدٌ وحشتها، ولا يكفكفُ دموعَ غربتها، ولا يمسّدُ شعورَ الخوفِ عن قلبها، ولتُنسى إلى الأبد.

وفي الزنزانةِ الأكبر من سجنهِ وضع الحشدَ الأكبرَ من المتهمين في قتلهِ... واستدعى بخيالهِ إخوتهِ وأصدقائهِ ولم ينجُ أساتذةُ المدرسةِ، أو الجيرانِ والباعةِ من انتقامه.

ولحظةَ صدورِ الحكمِ، أحضرَ أداةَ القتلِ، جُرعةَ مخدرٍ أرادَ أن ينهي بها حياته.

وقبلَ أن يتناولها؛ سمعَ صرخاتِ والدته تبكي بحرقة عليهِ، ولأول مرة شاهدَ والدهُ ينشجُ بصمتٍ، وحولهُ إخوتهُ يصرخونَ بحزنٍ، يرددونَ اسمه.

شعرَ بحزنٍ ينفذُ إلى مسامهِ وهو يراقبُ مجلسَ العزاءِ، وأحسَّ بمرارةِ القهوةِ العربيّةِ في فمهِ تنقلبُ حنظلاً.

بكى بحرقةٍ معهم لحادثةِ فقدهِ، ولم يحتملْ صرخاتهم مثل خناجرَ تقطعُ ما تبقى منه.

تذكرَ لحظاتهُ الحميمةَ التي جمعتهُ بهم، تعبُ والدهِ من أجلِ تأمينِ مصروفهِ، وحباتُ العرقِ على جبينِ والدتهِ وهي تحكمُ كيَّ كسرةِ بنطالهِ، تذكرَ لعبةَ الغمّيضة، وشرطيّ وحرامي التي كثيراً ما استمتعَ بها في الطفولةِ معَ إخوتهِ، وبرزتْ في مخيلته صورةُ أساتذتهِ ونصائحهم التي كثيراً ما تجاهلها رغمَ يقينهُ بفائدتها، ولطفَ الباعةِ

وسكانَ الحيّ في بعض الأحيانِ معه.
نظرَ إلى يديهِ وقد تجسدتْ له صورةُ جرمهِ، وأحسَّ بالدماءِ تتقاطرُ من بينِ أصابعهِ.
فتراجع، وبدأ بهدمِ مشروعهِ الكبير بكلّ زنزاناتهِ وردهاتهِ ونوافذهِ الضيقةِ الصغيرةِ وأبوابهِ الحديديّة الصدئةِ. واستسلم للنوم أخيراً عند طلوع الفجر، كما لم ينم من قبل.

ذَاكِرةٌ مُهَاجِرَة

أخيراً وصلتْ إلى الحديقةِ العامّة...
لمْ تتخيلْ يوماً أنها قدْ تكونُ بهذا الجمالِ، فقدْ جمعتْ بينَ أناقةِ التصميمِ في ترتيبِ البركِ، وتنظيمِ الممراتِ العشبيّةِ، واختيارِ الأسوارِ القصيرةِ ذاتِ النقوشِ الكلاسيكيةِ المتميزةِ، كما ضمّت نُخبةً رائعةً من الزّهرِ والشّجرِ، مما لم ترهُ أو تعرفهُ أبداً من قبل.
اتجهت فوراً إلى البركةِ الرئيسيةِ التي تربعتْ وسطَ الحديقةِ، فقلّبتْ نظرها حولها باحثةً عن مقعدٍ ملائمٍ لها بينَ المقاعدِ الخاويةِ.
وبعدَ جولةِ بحثٍ قصيرةٍ، وقعتْ عيناها على أحدها، فأسرعتْ إليهِ قبلَ أن يصلَ أحدُ المشردينَ ليستلقي عليهِ مع جريدتهِ الملفوفة، فيفردها على ظهرهِ كلحافٍ فخمٍ، يتدثّر بها من موجةِ البردِ القارسِ.
استقرّت بقدميها الثقيلتينِ على المقعدِ، واطمأنت إلى أن الوشاحَ الذي

ورثتهُ عن جدّتها من قماشِ الجوخِ الثمينِ قد لفّها بالكاملِ.
وبعدَ لحظاتٍ، بدأ رذاذُ المطرِ بملامسةِ زجاجِ نظّارتها، فأسرعتْ وأخرجتْ من حقيبتها منديلاً طرزتْ عليهِ حروفٌ (مُصعب) باللغتين العربيةِ والإنجليزيّةِ، قرّبته بحنانٍ إلى صدرها، وتنشقتْ رائحتهُ كمن ترغبُ باستعادةِ زمنٍ آخر عبرهُ.
مسحتهُ بعنايةٍ، وعادتْ لتأملِ السكينةِ الطاغيةِ على المكانِ، وهي ما تزالُ تنتظر.
فوجئتْ بوسادةِ الماءِ الساخنِ فوقَ قدميها مما أمدها بكثيرٍ من راحةٍ، على الرَّغم من شعورها بالغرابةِ من وجودها معها في باريس، وقد تركتها في الوطن، ورغبةٌ عارمةٌ اجتاحتها لمقاومةِ الرياحِ الباردةِ التي بدأت تشتدّ... كوبُ الشاي كان قريباً منها كفاية. وقد امتدّ بخارهُ المعطّرُ إليها، فتنشقته وشعرتْ بانتعاش.
علمتْ تماماً أن قدومها إلى هذا المكانِ خطرٌ عليها، وقد يضرُّ بصحّتها، وتذكرتْ تحذيراتِ الطبيبِ المتكررةِ لها بأن لا تغادرَ السّريرَ إلا بصحبةِ ابنٍ لها أو حفيدٍ، لكنها لمْ تدع للأمرِ بالاً وانطلقتْ خفيةً دونَ أن تُعلم أحداً.
وحيدةً كانتْ تحادثُ مياهَ البركةِ الصامتةِ، وتمدّ يدها للعصافيرِ التي كانت تقفزُ بحريّةٍ من مكانٍ إلى آخر، تشربُ من الماءِ المتجددِ تارةً، وترفرفُ فرحةً تارةً أخرى، وتتجرأ لحظاتٍ على الاقترابِ منَ السّيدةِ الوحيدةِ في المكانِ، فتتناولُ منها فتاتَ الخبزِ والبسكويتِ الذي راحتْ تقدمهُ لها بكرمٍ وحنانٍ غامرَين.
هجمةُ البردِ القادمةِ من القطبِ الشمالي هزّت أوصالها دونَ رحمةٍ،

وامتدّتْ بجرأةٍ وعنجهيّةٍ لتخترقَ الوشاحَ، وما لبثتْ أن جنّدت جيوشها لاختراقِ العظامِ، وراحتْ تعملُ على تآكلها، والسيدةُ صامدةٌ، عيناها سارحتانِ في أفقٍ بعيدٍ، وصورةٌ وحيدةٌ تلوحُ لها، فتبتسم وتطوفُ مثل شبحٍ في المكانِ يختفي ولا يلبثُ وأن يعود.

أخذت تسلّي روحها المتعبةُ بشيء من ذكرٍ وتسبيحٍ وحمدٍ، تنصتُ تارةً إلى تسبيحِ الكائناتِ حولها من أشجارٍ وأحجارٍ، وطيورٍ وقطراتِ ماءٍ، وتارةً تنادي الشبحَ الغائبَ، لعله يعود... فتسلو بهِ عن غربةِ المكانِ والزّمانِ. فقد أدركتْ أن سعادتها تجسدتْ في تذكرهِ، واقتفاءِ أثرهِ.

هناك... على المقعدِ الخشبي الفارغِ إلا من وجودها، وفي وسطِ الحديقةِ الصامتة، أحسّت به يجلسُ إلى جوارها.

قربُهُ الشّديدُ منها شكّلَ جداراً عازلاً بينها وبين الرياحِ الجليديةِ، فأوقفَ قشعريرةَ البردِ التي انتابتها منذُ الخطوةِ الأولى، ويدهُ الدافئةُ التي استراحتْ على كتفها المنحني أمدتها بشحنةِ طمأنينةٍ، فسكنتْ، واستجمعتْ شجاعتها للتحديقِ بهِ...

التفتتْ إليه، وتأملتْ طويلاً عينيهِ الخضراوين وكأنها تراهما للمرةِ الأولى، مدّت يدها المرتعشةَ، فمسحتْ بها شعرهُ، وهتفت بحبٍّ...

– ما زلتَ وسيماً يا مُصعب كما كنتَ من قبل.

قبّل جبينها ويدها، وأتاها صوته الدافئ يهمسُ لها:

– يدكِ باردة جداً يا أمي، هذا خطرٌ عليكِ، ألم أشدد عليكِ في اتّباع أوامرِ الطبيبِ؟

خلعَ جزءاً من سترتهِ السميكةِ وأخفاها في شطرها الآخر، وجلسا

يتأملانِ معاً الغربةَ والصمتَ، والبردَ الملفعَ بالشوقِ، والحنينِ الطاغي كشعاعِ شمسٍ رغمَ تلبدِ الغيمِ الأسودِ.
أخذتها سنةٌ من النومِ لحظةً، ثم استيقظتْ فزعةً.
رأتْ ابنتها الصغرى جميلة تسحبُ من بين يديها مجموعةَ الصّورِ، وتحكمُ إسبالَ الغطاءِ على كتفيها، وهي تقلبُ صورَ أخيها في أحدِ الحدائق العامة، تتأملها سريعاً واحدة تلو الأخرى وتقولُ بعجبٍ:
– ياه ما أجملها! أتعلمين؛ إنها الصورُ اليتيمةُ التي نمتلكها عنْ باريس منذ سبعةِ أعوامٍ! أظنها آخرُ الصورِ التي أرسلها لنا أخي مصعب – رحمهُ الله – قبيلَ وفاتهِ!
ردّت عليها بابتسامة شديدة المرارة، وأسبلت جفنيها تستجدي نوماً عميقاً لعلّهُ يحمله إليها من جديد.

رَفِيفُ العَنَـادِلِ

لطالما نسجتُ أحلامي الصّغيرة بعد تخرّجي؛ كأن أصحو على صوتٍ جميلٍ، صوتٍ يشبهُ إلى حدٍّ ما صوتَ العندليبِ...
لكن أحلامي كانت تذهبُ هباءً، فالعنادلُ مخلوقاتٌ تحبُّ الحياةَ، ولا تقبلُ العيشَ في غرفةٍ لا ترى النّورَ كالتي أعيشُ فيها.
فأجد أنني مضطرّ اليومَ وكلّ يومٍ أن أهبّ فزعاً وأخرسَ هذا الاختراعَ المزعجَ الذي لا يتوقفُ عن الرّنين.
السابعةُ تماماً... موعدُ وصولِ الحافلة إلى موقفِ حيّنا، أتلفّتُ حولي

فأجدُ الكلّ يحدّق في ساعته ليتأكد من عقربِ الدقائقِ، فهم عادةً يضبطونَ ساعاتهم على ساعة العمّ كمال سائقُ الحافلةِ المؤديةِ إلى وسطِ المدينةِ. وتأخرُ دقيقةٍ واحدةٍ يعني معاناة كبيرة في إيجادِ وسيلةِ للمواصلاتِ تقودُ المرءَ حيثُ يريدُ، وبالسّعرِ الذي يريدُ.

تخرجتُ منذ تسعةِ أشهرٍ، كانت حُبلى بالوهمِ، ولم تلدْ أيامي أيةَ بُشرى من حينها.

ها أنا أعيشُ الهمّ ذاته كل يومٍ، أتأملُ ذاتَ المناظرِ غير الطبيعيّةِ التي تلوحُ لي على الطرقاتِ.

كحفرةِ شارعِ المحبّةِ، وشاخصةِ التحذيرِ التي تسبقها. ومبنى المستوصفِ الذي يوشكُ على السقوطِ لتقادمِ الزمانِ عليهِ قبلَ أن يكتمل بناؤه، وكذلكَ الرّصيفُ الذي صدمتهُ شاحنةٌ منذُ عامٍ فبدا مشوّهاً.

كل شيءٍ ثابتٌ لا يتغيّر، إلا الطقس فهو في تجدّدٍ دائمٍ.

وصلتُ أخيراً إلى محطتي اليوميّة.

زيارةٌ خاطفةٌ إلى دائرةِ العملِ، وكالعادةِ، موظّفٌ غائبٌ، وآخرُ غافٍ خلفَ الجريدة!

الآنَ عرفتُ دورَ الصحفِ في حياةِ الموظّفين. أمّا الأوراقُ المقدّمةُ، المدعمة بالطوابعِ والأختامِ، فإنها لا تتوقفُ أبداً عن النّمو أمامهم.

– أوراقك قيد الدّراسة يا بُني... وهناكَ آلافٌ من الجامعيين مثلكَ ينتظرونَ الوظائفَ، لا أمكنةَ شاغرة حالياً، ورجاءً لا تعُد إلا بعد شهرٍ على الأقل!

لم يعد هنالك من داعٍ لأن أسمعها منه، فقد حفظتُها عن ظهرِ قلبٍ،

شهراً تلو آخر، كما كنتُ أحفظُ مناهجَ الثانويّةِ العامّةِ، لأحققَ حلمي بأن أكونَ جامعياً مرموقاً، وكما حفظتُ المحاضراتِ في الكلّيّة ببراعة، لأتخرج متسكعاً على الأرصفةِ، يتسوّلُ عملاً؛ ولا محسنينَ في المكانِ!

خطوات قليلة وأصلُ إلى قهوةِ العاطلين. هكذا أدعوها أنا وأصدقائي، حيثُ قررنا أن نتحالفَ هناكَ ونكوّن شلّةً مميزة، ثم حدثَ وأن سافرتْ بنا الأفكارُ بعيداً ذات يومٍ، فدعوناها رابطةُ العاطلينَ عن العملِ، ولعلّ الخيالَ سيبحر بنا مستقبلاً بشكلٍ أكبر، فأعيّنُ حينها مديراً لتلكَ الرابطةِ، فقد كانَ طموحُ والدي – رحمهُ الله – أن أكونَ مديراً لشركةٍ كبيرةٍ.

مسكينٌ والدي فقد توسّم الخيرَ بولدهِ، ولم تسعفهُ الأمنياتُ كي يرى حلمهُ يتحقق.

كوبٌ من الشاي مع كثيرٍ من السّكر، إنني حقاً أحتاجُ لسعراتٍ حراريةٍ إضافيّةٍ تعينني على الحركةِ؛ فالبحثُ قد جعلَ عظامي تتآكلُ، إنها تُصدرُ صوتاً غريباً كالبابِ الصدئ.

تعبتُ أجوبُ الشوارعَ، وأمشّطُ الأحياءَ بحثاً عن وظيفةٍ محترمةٍ، لشابٍ جامعيٍ طموحٍ ومحترمٍ.

وتعبتْ أمنياتي منَ الإخفاقِ، ولم يعدْ قلبي يحتملُ أن يرى بصيصُ الأملِ يخبو في عيني أمي الحبيبة التي لطالما حلمتْ لابنها بعملٍ مرموقٍ.

موعدُ الحافلةِ العائدةِ إلى ضاحيتنا قد اقترب، وجيبي يعلمني بأنها القروشُ الأخيرةُ التي أمتلكها، بالكادِ تكفي ثمناً للعودةِ إلى البيتِ،

وثمناً لأدويةِ المسكناتِ التي أتناولها ليتوقفَ الصداعُ الذي لا يكترثُ بي فيزدادُ معَ كلِّ خيبةٍ.

وسؤالٌ يقرعُ قلبي كناقوسٍ يردّدُ كلماتٍ تزلزلني... إلى متى؟ وماذا تنتظر؟!

لم أولد لكي أغدو عاطلاً عن العمل، ولم تكُن جلّ أمنياتي أن أغفوَ خلفَ جريدةٍ، ولا يبهجني منظرُ الرصيفِ المكسورِ والحفرةِ التي تبتلع ضحاياها كل فترةٍ فأراقبها في صمت.

أنا جامعيٌّ؛ ولكن من أبهَ لي ولشهادتي وتعبي إذ طافت بي الهمومُ في شوارعِ المدينةِ فكدتُ أفقدُ عقلي؟ من سمعُ أنّات جوعي؟ ومن مسحَ دموعَ ألمي التي أحاولُ ألا أظهرها تمثلاً بالرجالِ الشجعانِ.

سأرمي بأحلامي عرضَ الحائطِ، ولأنسجْ أحلاماً أخرى على قياسي، فأنا مازلتُ على قيدِ الحياةِ.

من الغدِ سأرتدي أقدمَ ثيابِ أملكها، وأعتمرُ قبعة تحميني من وهجِ الشمسِ، وألحقُ بركبِ العمّالِ أحاولُ أن أكون يداً تصنعُ وتجني لقمة عيشها بجدارة ، سأردمُ تلكَ الحُفرةَ، وأعملُ على إصلاحَ ذاكَ الرصيفِ، وأعودُ إلى أمي محملاً بفاكهة وحلوى، ستبكي فرحاً وتدعو لي أكثر.

لن يغيّر ذلك من كوني إنساناً جامعياً مثقفاً، فالثّقافة لم تكن يوماً تسكعاً وبطالة، وبكاء على أطلال أحلام ضائعة.

سأجني مالاً يساعدني على تكوين ذاتي، ومدّ العون لغيري.

سأديرُ شلّتي الخاصّة بمفاهيمي الجديدة، ولتكن ثورةً على الخمولِ، وليتبعني من يؤمنُ بأن العمرَ لا ينتظر.

لن يضيء جبيني إلا بحبّاتِ العرقِ تتساقطُ لتشعرني أنني على قيدِ الحياة.
سيشتري كلّ عاطلٍ منا عندليباً كي يحررهُ من قفصه، ويطلقه بعيداً ليرفرفَ على هواهُ، ويغرّد كما يحبّ، وليكن تغريداً بلا غُصّة قيدٍ تحوّله عبداً لما يمكن، ولأخترقْ بذلك جدارَ المستحيلِ ولأتحرّر.

إلا أَنتَ

خالجها يأسٌ شديدٌ، وإحساسٌ بالشّلل والعجزِ عن فعلِ أي شيء، وهي تتابعُ أحداثَ غزّة في ظلِّ الصّمت العالميّ المطبق. فامتلأ وعاءُ قلبِها الرّقيق نقمةً وغضباً.
نظرت إليه؛ كان مُضَّجعاً على الأريكة يتصفّحُ مجلاتٍ رياضيَّة وأخرى فنّيّة، غير مبالٍ بما يحصل.
هالها هذا البرود فانفجرت كلماتها في وجهه فجأة:
– إنّه زمنُ التَّخاذل، لقد ضاعت الأمّةُ، وانقرض الرِّجال!
تابعَ تقليب صفحاتِ المجلّة ولم يلتفت، ولكنَّه دونما اكتراثٍ سأل:
– كلُّ الرِّجالِ يا عائشة؟!
عضَّت على شفتيها، ورسمت عنوةً ابتسَامةً باهتةً على وجهها، وأجابت:
– إلا أَنتَ!

حالةُ طوارئ

نظرت الأمُّ في ورقةِ التقويم فاقشعرّ جلدها، وانتفضتْ مذعورة.
سارتْ على أطرافِ أصابعها نحو زوجها الذي كان متكئاً على الوسادةِ يتابعُ الأخبار باهتمامٍ بالغٍ ، همستْ لهُ بالأمر، فانتفض وهبّ من مكانهِ واقفاً وهو في قمّةِ الذهول.
قال لها والغصّة تخنقه:
– ما العملُ الآن يا سامية؟ وكيف سنتصرفُ مع ابنتنا ليلى؟
أجابته بعينين دامعتين:
– لست أدري يا معاذ، مسكينة ليلى، لم تتمتع بالحياةِ بعد ، هكذا أتاها الأمرُ على غفلةٍ، كيف تراها ستحتملُ المعاناة وهي الرقيقةُ الهشَّة؟ وكيف ستقوى على المصيبة، وقلبها صغيرٌ لا يطيق ما سيعاني!
أجابَ الزوجُ وقد أخذتهُ الحميّةُ، وقالَ لزوجته:
لن أدعها تتحطمُ وتضيعُ أمامي، لا بدّ من التحرّكِ على عجل.
على الفورِ أمسكَ جهازَ التلفازِ، ووضعهُ في العلّيةِ، وحملَ الهاتفَ وأخفاهُ في الخزانةِ، وأقفل عليه بالمفتاح. وقالَ لزوجته:
– سأذهبُ الآن وأعودُ محملاً بالأغذيةِ والمؤونةِ الكافية للبيتِ لمدّةِ عامٍ.
ودعته الزوجة وهي تكلله بأخلصِ الدعوات.
ودبّ في قلبها هي الأخرى الحماسُ للعملِ والإنجازِ، فأمسكت الجوّالَ، واتصلتْ لتعتذرَ عن كل النشاطاتِ والزياراتِ والمواعيدِ التي

كانت قد وعدتْ بها الأهلَ والأقاربَ والجارات. وكلّهن وافقنها وهنأنها على قرارها الشّجاع.

وقفت ليلى ذاهلة، تشاهدُ والديها يتصرفانِ بجنونٍ.

وسألتهما عن الخبرِ، فلم يجيبا . كانت ملامحُ الأسى والحزنِ باديةً عليهما.

لم تطقِ الفتاةُ ما يحصل، فألحّت عليهما بأنْ يفصحا عن سرّ ما يحدث، فنظرتْ إليها الأمُّ نظرةُ عطفٍ وإشفاقٍ، ولم تجدْ بداً من مصارحتها بالحقيقةِ المرّةِ، فهمستْ لها برفقٍ، وقلبها يتقطّعُ خوفاً عليها.

سمعت ليلى الخبرَ فانهارتْ وبكتْ، وكادَ أن يُغشى عليها بين يدي والدتها، فيما كانتِ الأمُّ المسكينةُ تبكي وتقولُ:

– هذا ما كنتُ أخشاه، هذا ما كنت أخشاه!

مرّ شهرٌ على بدايةِ الأزمة، وليلى تعالج عندَ طبيبٍ نفسي، وأصبحت حالتها أفضلَ بكثيرٍ مما كانت عليهِ لحظةَ تلقّي الخبر، رغمَ أنَّ الوهنَ قد دبَّ بجسمها، وتغيرت ملامحها، فاكتست همّاً وغمّاً، وظهرتْ شعرةٌ بيضاءُ في سوادِ شعرها. إلا أنها تجلدت، وكانت تبلي حسناً مع طاقمِ الأساتذةِ الذين كانوا يدرّسونها.

في هذه الأزمةِ، كان موقفُ الأمّ والأبِ عظيماً، فقد تجندا لرعايتها، وتركا كل سعادةٍ في الحياةِ من أجلها، رغمَ أنهما هما الآخرَيْن قد عانيا من مشاكلِ الضّغط والسّكّرِ وأمراضِ القلبِ، إلا أنهما تجلدا كي يساعدا ابنتهما الحبيبةَ والوحيدةَ ليلى على تجاوزِ هذه الأزمة، أزمة الثّانويةِ العامّة التي قدّرَ الله أن تُبتلى بها عائلتهم المنكوبة.

نجحتْ ليلى بعد عامين من الدراسةِ الجادةِ ، وتخرّجتْ أخيراً، ولكن لم تقبلها أيّة كلّية.
لم تقبلها بكلِّ أسفٍ سوى العياداتِ النّفسيِّة.
وما زالَ النفيرُ مستمراً، وخريجات العياداتِ النفسيّة في ازدياد...

طَعَامُ الطيُور

حدّقَ سعيدُ طويلاً في لائحةِ الطعامِ؛ والحيرةُ تعلو وجههُ، في اختيارِ طبقٍ شهيٍّ يناسبُ ذوقهُ الصعب، فيما كانت صفاءُ تحاولُ إقناعَ ولدهما علي بأنْ يتناولَ قطعَ الدجاجِ والبطاطسِ المقليّة؛ ولكن من دون جدوى.
صعدت زفرةٌ حيرى من قلبِ الزوجِ وهو يطلبُ المساعدةَ من زوجته في الاختيار.
– السمكُ المشويّ تناولناه منذُ أيامٍ في المزرعةِ، واللحمُ والدجاجُ مللنا منه طوالَ الأسبوعِ، الحساءُ يسبب الحرَّ والعطش في الصيفِ، والوجباتُ الصينية مملة، والإيطاليةُ تكسبُ وزناً زائداً، ما العملُ يا عزيزتي؟ لقد حرتُ حقاً!
أمسكت صفاء القائمة بدورها وقالت له:
– سأختارُ لكَ على ذوقي وستأكل بشهيّة، يكفي ما نالني من عليٍّ حتى وافقَ على اختيارِ وجبته.
مرّ الوقتُ سريعاً، وتناولت العائلةُ الصّغيرةُ غداءها بهناءٍ ، وقرّرتْ

أن تنصاعَ لأوامرِ عليّ الصغير في الانطلاقِ إلى حديقةِ المطعمِ الخاصّةِ بالحيواناتِ الصغيرةِ الأليفةِ، ومنها إلى مدينةِ الألعابِ.

كانَ الطفلُ مغرماً بالأرانبِ والإوزِ والبطِّ أشدَّ الغرامِ، كلما مرّ بقفصٍ من أقفاصها حملَ لها معه أصنافاً من البطاطس والجزرِ والملفوفِ وقطعِ البسكويتِ الصغيرة ليطعمها إياها، فتتراكضُ مسرعةً إليه وتتقاتلُ للحصولِ على لقمةٍ لذيذةٍ تقدمها اليدُ الصّغيرةُ بين لحظةٍ وأخرى. فيما كانتْ عيونٌ صغيرةٌ لصبيّ وفتاةٍ تراقبُ عليّاً باهتمامٍ زائدٍ.

– أمّي... انظري إليهما، إنهما يحدّقانَ بي طوالَ الوقت، وكأنهما يريدانَ شيئاً.

– دعكَ منهما، ربّما لا يسمحُ لهما والدهما باللعبِ مع الحيواناتِ.

نظرت إليهما الأمُّ بغضبٍ، فأشاحا بوجهيهما عنها، وجلسا القرفصاء قربَ أحدِ الأقفاصِ.

سريعاً نفذت مؤونةُ الطيورِ، وكانَ على الأمِّ أن تبحثَ لابنها على تسليةٍ جديدةٍ، ولم يكن أمامها سوى الألعابِ الكهربائيّةِ.

وقفت طويلاً تنتظرُ عاملَ قطعِ التذاكرِ، الذي أغلقَ نافذتهُ بشكلٍ مؤقتٍ وغابَ عن مقعدهِ المخصّص.. تنظرُ إلى ساعتها في ضجرٍ، وتصغي بصبرٍ كبيرٍ إلى صيحات التذمّر من ابنها الذي ملَّ الانتظار.

وبعد فترةٍ وجيزةٍ؛ لاحَ من بعيد أحد العمّالِ قادماً يحملُ طبقاً كبيراً من الحبوبُ المطبوخةِ وصحناً كبيراً من اللبنِ المجمّدِ.

وبسرعة جال في خاطرها أن تلك الحبوب هي طعام الطيور في تلك الحديقة المصغّرة، فنادت علياً على عجل تحفّزه على تأملِ الحدثِ

الجميلِ، حدثِ إطعامِ الطّيورِ الجائعةِ وتهافتها على الطّبقِ.
فأقبلَ الطّفلُ يراقبُ الطبقَ بين يدي العاملِ، وهو يصرخُ من الفرحِ.
– طعامُ الطيورِ... طعامُ الطيور.
لكن سرعانَ ما خابَ ظنّه وقد رأى الرّجلَ داخلاً غرفتهُ الخاصّة التابعة للمطعمِ، يتبعه ذاتُ الصبيّ والفتاة اللذان كانا يحدّقانِ بعليّ وما يحمله من أطعمةٍ، فيجلسانِ على حصيرٍ قديمةٍ، ويتناولانِ بقلبٍ كسيرٍ غداءهم المخصّصُ. طبقُ الحبوبِ المسلوقةِ مع اللبن.
أمسكت صفاء يدَ ابنها وسارتْ على عجلٍ محاولةً أن تختفي عنِ أنظارِ العاملِ وصغارهِ، وراحت تبحثُ عن زوجها الذي أعيته التخمةُ عن مرافقتها إلى الحديقةِ، واغرورقت عيناها بالدموع، وتحشرج صوتها، وقد حارَت جواباً على تساؤلاتِ الصّغير.
– لماذا يا أمّي يأكلُ الرّجلُ وأولادهُ طعامَ الطيور؟!

أسِيرةُ وَرَقة

تنازَلتْ عَن مظلّة الدفءِ في وطنها، وعن تغريدِ عصافيرِ الجنّةِ أمام نافذةِ غرفتها، وعن قبلة تطبعها على وجهِ أمها كلّ صباحٍ فتسمعُ معها عباراتِ الرّضا والدّعاء من قلبها الحنونِ، لتعيشَ تجربةَ الحبّ التي رافقتها طويلاً في أحلامِ يقظتها، فهي الآن حقيقةً تتراءى أمامَ ناظرها، ممثلةً في شخصِ زياد.
ذلكَ الفارسُ القادمُ من بلادٍ بعيدةٍ، كم تشبهُ صورتهُ تلك الصورةَ

المتخيّلة التي صنعتها في داخلها لصور الأبطالِ. الحضورُ الرائعُ والطّيبةُ والكرمُ ، وابتسامةٌ ساحرةٌ تأسرُ الفؤاد.

كلها أمورٌ أقنعتها بأن تحزمَ حقيبةَ سفرها على عجلٍ وتمضي معهُ إلى ديارهِ من غيرِ تردد.

الحُبّ وجهتها التي لا تدري إلى أن تقودها، فمن أجلهِ احتملت برودةَ المكان وأهلهِ، وقسوةَ الغربةِ، وتجهّمَ الشوارعِ، وعبوسَ الأبنيةِ والطّرقاتِ.

حدّثتْ نفسها فقالت:

– كم يختلفُ المكانُ عن مدينتي الدافئة العامرة بالنّاسِ الطّيبين.

على الرَّغم من شوارعها المتعرّجةِ وحاراتها الضّيقةِ بجدرانها المتصدعةِ، كانت لي وطناً صغيراً أحببّته رغمَ قباحتهِ.

إلا أن زياداً بالنسبةِ لي وطنٌ جديدٌ هاجرتُ إليه بأمتعةِ الحبّ وكلّي أملٌ أن أستوطنه.

خطواتٌ عجلى على سُلّم البناءِ، والمصعدُ يشيرُ إلى الطّابقِ الرّابع، الشّقةُ اليسرى كانتْ عُشّها الذي أوتْ أخيراً إليهِ دونَ اعتراضٍ، ولم تلقِ بالاً لكثرةِ حذرهِ في خطواتهِ، وتحذيرهِ إياها من لقاءِ الغُرباءِ، ولم يزعجها تلفّتهُ يمنةً ويسرةً كلصّ يخشى افتضاحَ أمره، فهو في نظرها الشهمُ الغيورُ على عرضهِ. وهي الغريبةُ المحاصرةُ في بلادهِ، منِ ابتلعت غصتها يومَ عقدِ الزّواجِ، فلم يكن من حقّها أن تعترض، العقدُ عُرفيّ!

لقد كانَ هذا شرطهُ الوحيدُ الذي أصرَّ عليهِ، ووافقت هي، ووقّعت من أجلِ الحبِّ من دون شروط.

ليلةٌ أولى قضتها تشدو ألحانَ الفرحِ في البيتِ الجديدِ، زيّنتها بالسّمرِ والعطرِ والشموعِ الملوّنةِ التي أضاءت كلّ زاوية.

وغفت تحلمُ بغدٍ جديدٍ يحملُ فيه زيادٌ لها تصريحاً بإشهارِ الزّواج كما تتمنى، وكما يقتضي شرعُ الله.

أيقظها رنينُ هاتفه، وتلبّدت غيومٌ في ملامحه...

نهضَ وودّعها كالملسوعِ راحلاً على عجلٍ، ليتركها ترقُب طلوعَ الشّمسِ وحيدة . تحادثُ نفسها عن ألفِ مصيبةٍ ربّما قد حدثت له، وينتابها الكربُ لحالهِ، فتبكي لحظةً، وتتشبث بالأمل في أخرى فتتجاسرُ على مخاوفها.

يومٌ مضى؛ وعيناها معلقتان ببابِ الشّقةِ، ترقبُ قدومه بين لحظةٍ وأخرى.

تسترقُ نظرةً إلى النافذةِ، ثمّ تعودُ لتجوبها غدوةً وإياباً...

– لم يُعطني رقم هاتفه، عنوان أهله أو عملهِ؛ أيّ شيء.

وتتناوشها ظنونٌ سوداء.

– أتراه مكروهٌ حلّ بوالده أو والدته، أتراها زوجته الأولى ضيّقت عليه؟! أم تُراهُ قد رحلَ ولن يعود؟!

شعرتْ بأنها قد باعتْ نفسها بثمنٍ بخس، وبأنّ عليها أن تحتمل ضريبةَ حبّ في ثوبِ حلمٍ، أو وهم!

انتابتها رغبةٌ بالبكاء، وتمنّت أن ترتمي في حضنِ أمها تشكو ما أصابها من جراحٍ وأسى وهي عروسٌ لم تشرقْ على ليلها شمسُ نهار.

عروس تكتم سرّاً، تحملُ الصمتَ على عاتقها بثقلٍ، ترقبُ قدوم

الحبيبِ في لحظة، فيخبرها أنه اضطرَ للرحيل ليلتها ، وبأنه لن يفارقها بعدها أبداً.

وراودتها الهواجس فقالت في نفسها:

– أما زلتِ مخدوعة؟!

ليست كلّ الأحلام تتحقق، بعضٌ منها يبقى وهماً، والبعض الآخر قد يصبحُ مأساة إن أنتِ بعتِ نفسكِ لمجرّد حلم.

أتراهُ كان البيعُ خاسراً؟!

ومضت أيّام لم يطرق بابها طارقٌ، وانزوت وحدها في غرفة مظلمة كقبر!

فعلى الرَّغم من جثوم الهمّ على قلبها، إلا أن الحقائقَ بدأتْ تتكشّف، ونداءٌ داخلها حاولت ردعه دون جدوى كان يقول:

– لا تنتظري أكثر، زياد لن يعود!

البابُ مقفلٌ عليها قد حوّل عشّها إلى زنزانة، والسّجّانُ قد رحل، والخوفُ استولى على السّجن، وراح يُعربدُ بحريّة في قلبها، حتى قاربت على الجنون.

وشبحُ الموتِ بدأ يحومُ في الشّقةِ النائيةِ، تراهُ كلّ دقيقةٍ فيزدادُ هلعها من نهايةٍ لم تتمناها أبداً.

زادها نفذ، وصبرها أيضاً وهي ما تزالُ تنتظرُ دخولهُ من بابِ الشّقّة...

فتحت نافذتها الصّغيرة وراحت تصرخ بصوتها الواهن طالبةً النجدة، فاجتمع على النداء أهلُ الحيّ والجيران.

لم تمتلك أيّة وثيقةٍ عن زياد، لا اسم ولا صورة أو عنوان، لاشيء

في المكانِ.
لا ورقة تعلنُ الزواج، ولا هويّة أو جوازِ سفر، كلّها قد حملها معهُ في لحظةِ بؤسٍ وارتحل.
لم تتوقف سيولُ الاتهاماتٍ عن التدفقِ عبر الكلماتِ والنظرات، لتجهز على ما تبقى منها، ولم تساندها إلا فتاة مثلها، عانت من ذاتِ الوجع، ولم تنتظر حتى تُسعفها، فكانت صورةُ الفتاة آخرَ ما رأته قبل أن تهوي على الأرضِ صريعةً مقيّدة بأغلال الكتمان...
هزّتها الفتاة بعنف، ففتحت عينيها قليلاً يُخيل إليها أنها آمنة في حضن أمها، وتبسمت لحظةً، ثمّ أسلمت الروحَ ولسانها مازالَ يلعنُ الغدرَ والجبنَ؛ وأيضاً... صاحبَ الورقة.

تَعَايُش

صفقَ مرادُ الصغيرُ ذو الثلاثةِ أعوامٍ بابَ الغرفةِ بقوّةٍ، واقترب من والدتهِ بهدوءٍ وقال لها مبتسماً وبقناعةٍ مُطلقة.
– ماما ... أنا كلب!
فتحت الأمُّ عينيها بدهشةٍ ونهرتهُ قائلةً:
– عيبٌ يا حبيبي، من أينَ تأتي بهذهِ الكلماتِ السّيئة؟!
ببراءةٍ وصدقٍ أجاب:
– إنها معلمتي في الرّوضةِ، كلما أغلقتُ بابَ الصفِّ بقوّةٍ قالتْ لي يا كلب!

عمليَّة تجميل

استغربتُ غيابها المتكررَ عن القدومِ إلينا، وقد كانَ بيتُ جدها هو الأثيرُ عندها.

تركضُ إليه بمرحها وعفويتها كقطةٍ مدلّلةٍ، تعرفُ أنّ كلّ من في البيتِ يحبّ ميرا الفتاةَ الجميلةَ اللذيذة!

تسلّم على عجلٍ وتطرقُ بابي بحبّ، تقبّلني وتجلسُ على سريري، وتحكي عن مغامراتها.

– خالتي... اليوم ثارتْ غرفةُ صفّنا ضحكاً على ضفدعٍ أحمقٍ صغيرٍ، اصطادته لنا هنادي وأفلتتهُ في حصّة الجغرافيةِ ليقفزَ فيلفَّ الكرة الأرضيّة على طاولةِ المعلّمة...

أصغي إليها كما أصغي لصوتِ الحُلمِ الجميلِ حينَ يطلّ بعد غيابٍ...

– ميرا... حبيبتي... كم كبرتِ وأصبحتِ تُشبهين خالتكِ!

تدورُ حول نفسها أمام المرآة بدلالٍ وتقولُ متحدّية:

– بل أنا أجملُ ولا شكّ!

أيامُ الشتاءِ تمرُّ طويلةً، وأنا مازلتُ في سريري عاجزة عن الحراك. ميرا باتت تزورني في فتراتٍ متباعدة، فقد أخذتها المرحلةُ الثانويّةُ بصخبها، وازدحمتْ الكتبُ والمراجعُ أمام طاولتها، وازداد تأففها وتململها من الدراسةِ، وأصبحت تميلُ إلى أشياءٍ أخرى.

اشتكت لي أختي مرّة عنها في مكالمةٍ هاتفيّة:

– إنها تمضي أوقاتاً طويلةً في المكتبات.
استبشرتُ خيراً وقلتُ لها:
– الثقافة خيرٌ لابنتكِ من أشياءَ أخرى، لا تضيّقي الخناقَ عليها في الكتبِ المدرسيّة فقط!
اسمحي لها بالاطلاع، واكتشافِ صنوفِ المعارفِ والآدابِ بنفسها.
ضحكتْ أختي بمرارة وقالت:
– لكنها تجوبُ المكتبات بحثاً عن وجه جميلٍ تودُّ لو أصبحت مثله!
تذكرت لحظتها تلك المجلاتِ السّخيفة التي كانت تحضرها، وصورَ الممثّلات والعارضاتِ التي كانت تريني إياها وهي معجبةٌ بها أيّما إعجابٍ.
– أليست تصفيفةُ شعرها جميلةٌ، شفتاها واتساع عيناها، إنها بعيدةٌ كل البعدِ عن ملامحي القاسيةِ وأنفي المستطيل.
كنتُ أخبرها دائماً بأنّ الجمالَ جمالُ الرّوح.
وبأن الله أعطانا الجمالَ لكي نحفظه، فلا نرخصه للعرضِ أمامَ الناسِ بهذه الطّرق التّجاريّة.
وكانت تصمتُ طويلاً، ثمّ تغيّرُ بدهاءٍ مجرى الحديثِ كيلا أفهمَ ما يدورُ في خلدها فأثنيها عنه.
لأول مرّة في حياتها تغيب شهراً كاملاً.
– ألهذا الحدّ يا ميرا هانت عليكِ خالتكِ.
لولا العجز في قدميّ لأتيتُ ووبختكِ بما أستطيع...
ولو أنّي أستطيع... لعانقتكِ باشتياق.
ترى... ماذا حلّ بكِ يا حبّة القلب؟!

اتصلتُ بأختي معاتبة باكية، فأتتني الصاعقة!
ميرا تودّ أن تترك دراستها، وهي تصرّ على عمليّة تجميلٍ تغيّر بها أنفها ليبدو أصغر، وتضفي بعض الاتساع على عينيها.
إنها تعتقد بأنه حقٌّ شخصيٌّ لها، وبأنني ووالدها نقفُ في طريقها.
إنها المعرفة التي كنتِ تودّين أن تتعمّق بها، والثقافة التي شجّعتِها على الوصولِ إليها!
أغلقتُ السّماعةَ وفكّرتُ طويلاً في المسألة.
ليستْ قضيّة ميرا فحسب! بل قضيّة العالمِ بأسرهِ، لا أحد راضٍ عن نفسهِ، والموجة قويّة قد تجرفُ الجميعَ وتُغرقهم، فكرتُ بحل، ثمَّ اتصلتُ على عجلٍ بأختي ودون تحيّة طلبتُ أن تأتِ ميرا إليّ بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ للضرورةِ القصوى، فهناكَ مفاجأةٌ رائعةٌ أودّ أن أهديها لها بمناسبةِ شكلها الجديد.
وطلبتُ منها ألا توافق على عملية التجميل قبل الثلاثة أيامٍ مهما حصل!
استجابت أختي على مضضٍ، وبثقةٍ أقلّ من ذي قبل، وبدأتُ أنا العملَ بهمّة.
لم يكن الأمر سهلاً أبداً.
فالبحثُ في دليلِ الهاتفِ عن أرقامِ المكتباتِ، وأن أطلبَ منهم أشياءً متنوعةً غير محددة، وأن يأتوا بها إلى المنزلِ، كان أمراً عسيراً، لكنني حققتهُ بنجاحٍ.
مقصّ وأوراقٌ بيضاءٌ، وأخرى ملوّنة، مجلاتٌ ملأت السريرَ تدثرتُ بها عوضاً عن لحافي الدافئ، وليلٌ طالَ في عملٍ مضنٍ، ومغامرة قد

لا تؤتي أكلها، وبحوثُ أخرى على الإنترنت، جعلتني أنامُ منهكةً كجندي غادر أرضَ المعركةِ.

أيّامُ ثلاثة مرّت... ولا أحد يدري ماذا يجري في غُرفتي.

سمعتُ أمي تقول لوالدي بأني أصبتُ بالصّدمة، بسببِ ما حدثَ لميرا، وبأنني على حافّة الجنون!

وسمعتُ أيضاً بأنّ ما يحصلُ ردة فعلٍ عنيفة، فتقطيع أوراقِ المجلاّت – برأي الطبيب النفسي – نوعٌ من التنفيسِ عن تأنيبِ الضّمير، لأنني أنا السبب بقرارِ الفتاةِ المفاجئ. ولم آبه بكلّ ذلك، فقد كنتُ متشوقةً للموعدِ، وقد جاءَ أخيراً.

كانَ البيتُ هادئاً، والكلّ يترقبُ المفاجأة الغريبةَ.

سريري مرتّبٌ وأنا في أحسنِ حالاتي، لا وجود لقصاصةِ ورقٍ في الغرفةِ، والبابُ يطرقُ بحذر.

ليسَ كعادتها، لم تعد مرحة، ربما قرارها، أو مخاوفها مما قد حضّرته لها.

دخلت بصمت، وطبعت قبلةً على جبيني...

نظرتُ في عينيها، ومسحتُ شعرها الذي قضت النهارَ تجعّده، وقلتُ لها دامعة:

– اشتقتُ إليكِ.

حاولت الهروبَ من عتابي، فسألتني عن المفاجأة، ولم أرغبْ بتأخيرها أكثر.

أخرجتُ مغلفاً، ووضعته بين يديها، وأنا أراقبُ ردّة فعلها...

أصابتها الدهشة وهي ترى صورَ الممثلات على غلافهِ، وابتسمت

بفرحِ طفلةٍ قُدّمت إليها قطعةُ حلوى. ثم بدأت تتصفحُ بشوقٍ.
كانت الصورُ غريبة...
هرّة قطعت أذنيها وألصقَ مكانها أذني أرنب، وعينا جملٍ بُدِّلا بعيني غزال.
وردة جوريّة وضعت مكانها زهرة ياسمينٍ رقيقة، وقرنفلة قطعت أوراقها وألصقت أوراق فاصولياء...
وهكذا... كانت كلّ صفحاتِ الكتابِ، كلما قلبت صفحةً حملتها على ضحكٍ هستيريّ، وتعليقاتٍ كثيرةٍ مرحة.
نظرتُ في عينيها، وأغلقت الكتابَ وهي لم تزل تضحك.
نظرت إليّ وقالت:
– خالتي... ما هذا؟
بثقة أجبتها:
– هكذا ستصبحين قريباً، بعد عمليّةِ التجميلِ.
فاجأتها الإجابة وأصابتها بصدمة، صمتتْ طويلاً، ثمّ انفجرتْ باكيةً، وكأنها فهمتْ اللغزَ ورأتْ الحقيقةَ دونَ زيفٍ.
عانقتها وقلتُ لها:
– يا صغيرتي... أتشكّينَ في أنني أتمنى أن أراكِ أجملَ فتاةٍ في الكون؟
وأجبتُ عنها:
– بالطبع لا؛ لكنني على يقينٍ بأن الله جعلَ لكلِّ مخلوقٍ ما يناسبهُ من ملامحٍ، لا يكون جميلاً إلا بها "لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم"،

فإن حاولَ التسلّطَ على طبيعتهِ أو تحدي فطرتهِ أدّى ذلك بهِ إلى التشوّهِ مهما ظنَّ نفسهُ جميلاً.

الجمالُ يا حبيبتي هو التكاملُ، وأن يسعدَ المرءُ ويقنعُ بما وهبه الله تعالى من نعمٍ، فيشكرُ الله تعالى عليها، وأن يحميها ويحافظَ عليها من التلوثِ بدلاً من أن يعبث بها فيفسدها.

وهناكَ جمالٌ آخرُ هو أصلُ كلّ جمال؛ إنه جمال الرّوح. ننميه بتعميق الإيمان بالله، ونرفعه بقراءة ما ينمي العقل، فيتكامل المظهرُ والجوهرُ.

أخذت المغلّف وقلت لها:

– انظري إلى هؤلاء النساء؛ ربما قد وهبهن الله جمالاً، ووجهاً حسناً، لكنه جمالُ مصطنع، غير حقيقي، كزهرةٍ بلاستيكيّة بلا رائحة، وبلا ملمسٍ مخمليّ رقيق، وانظري إلى التقارير حولَ مساوئ عمليّاتِ التجميلِ وأثرها على الجسمِ بعد حين.

هذه فتاة تدعى لُبنى، قد غيّرت شكل أنفها، وكانت سعيدةً بذلك، ثم لم تلبث وأن زالت سعادتها، إذ أن ذلك التغيير لم يتقبله جسمها ولم تتكيف معه، فصارت تعاني من مشكلاتٍ كثيرةٍ، أبسطها مشكلة في التنفّس، وهذه امرأة أصيبت بالسرطان من جراء عمليّة لشفتيها، وغيرهما كثير.

قد يعجبكِ نوعٌ ما من الجمال فترغبين بتقليده، ولكن لا تنسي وجود جمالٍ أهم هو جمالُ العقلِ والرّوحِ ، ولو كانت هؤلاء الفتيات تمتلكنهُ حقاً لما فرّطن به هذا التفريط، ولما أضعنه فعشنَ حياتهنّ بلا هدفٍ، فبتن كالدّمى، بلا عقلٍ أو روحٍ.

تركتني باكية، وغابت ليلتها، ولم أتصل لتفقدِ حالها... ولم أنم ليلتها أيضاً، فقد ساهرني ألمٌ شديدٌ في ساقيّ أعياني وحرمني الراحةَ، وألمٌ أكبرُ راودني وأنا أتخيّل صورتها الجديدة إن لم تستجب لندائها، ترى كيف سأتقبلها؟!

رنينُ الهاتفِ في الصباحِ أيقظني، وكانت هي... ميرا...

لا، ليستْ ميرا التي ودعتني البارحةَ كئيبةً حزينةً، بل ميرا المرحةَ التي أعرفها.

أخبرتني بأن لديها مفاجأة أيضاً لي، وبأنها آتية لتهديني إياها.

توقعتُ كلّ شيء إلا هذا الكرسي الكهربائي المدولبِ الذي كانَ لي حلماً يئستُ من أن يتحقق.

حملتني إليه بفرحٍ وهي تقول:

– اشتريته بالمالِ الذي كنتُ سأنفقه على العملية...

وعلمت أن هناكَ في داخلي ثمّة تشوه روحيّ خطيرٌ يحتاجُ إلى أكثرِ من عمليّة تجميل، أتمنّى أن أجريها على يديكِ...

والآن سأقوم مع خالتي – أجمل الجميلات – بجولةٍ في حديقةِ جدتي.

أعوام طويلة مضت،لم تنقطع ميرا عن زيارتي كلّ أسبوع.

أضحكتني كثيراً هذه المرة وهي تتحدث عن خطيبها راضي وهي تقول:

– عجيبٌ أمره يا خالتي، فأكثر ما يعجبه فيّ إضافةً إلى ثقافتي وفكري، أنفي المستطيل!

مُقَـايَضَة

تحسست كوثرُ الكدمةَ الزرقاءَ قربَ عينها اليُسرى، وشعرت بانتفاخها، سارتْ إلى غرفة ابنتها سوسن لتطمئن بأنها نائمة، وتحسست فستانَ الزّفاف الذي غفا قُربها.

تأملتْ وجهها البريء الغافي في أحلامه الحلوة، ومسحتْ شعرها بحب وهي تهمس:

– لن يسرق والدكِ منّي طعم الفرح بزفافكِ غداً.

عادت إلى غرفتها وقد أحضرت القليلَ من الثّلج ومرّرته تحت عينها، متنهدة بألم، وهي ترى أمامها نسخة مشوهةً عن وجهها الذي تعرفه.

على الرَّغم من برودة الثّلج على وجهها، وانهمارِ المطرِ غزيراً في الخارج، إلا أنّ الألم الذي كتمته أشعرها بأنّ كل شيء حولها يحترق، وبأنّ بركاناً داخلها يوشكُ على الانفجار.

أخفتْ وجهها الشاحبُ بيديها وبكتْ طويلاً في صمتٍ، وذكرياتٌ مريرةٌ شتّى معه تلاحقها؛ كشريطِ فيلم سينمائيّ مرعبٍ، لا تبدو له نهاية.

تمنّت لو تثورُ كما السابق، أو تحطّم تلك المرآة التي تُريها وجهها كل يومٍ بشكلٍ جديدٍ، وجرحٍ جديدٍ، لا يقل إيلاماً عن جراح سبقته، تمنّت لو عادت إلى بيت والدها المتوفى على الرَّغم من وحشته، أو لجأت

إلى بيت أخيها مهما قابلتها زوجته بجفاء، لكنّها واست نفسها بمرارة وهي تقولأ:

– وماذا تبقّى من عمري لأهدره خارج بيتي ؟ وبأي وجه سأقابل زوجَ ابنتي! لن يتركها في حالها إن علمَ أساسَ المشكلة، سيتمادى معها سخرية وأذى كحالِ كثيرٍ من الرّجالِ، فهل سيكون أفضل حالاً من والدها وهو معجبٌ بسلوكه، ويقلده في أفعاله!

فاجأها صوتُه نادماً يقطعُ ثرثرة أحزانها:

– إنني آسفٌ لما حصل؛ لم أرد إيذاءكِ.

تبسمت بسخرية وهمهمت : قديمة!

– إسمعيني يا كوثر، أعرفُ بأنني قد آذيتكِ، لكن الأمر لم يكن عن قصدٍ فقد خرجت الأمورُ عن السّيطرة فجأةً و...

قاطعته:

– دائماً تخرجُ الأمورُ عن السّيطرة معي فقط، لا أدري لماذا ؟ ألأنني الكائنُ الأضعفُ في حياتك؟

– لا تدعيني أشعرُ بأنني وحش!

– الوحوشُ أرحم منك يا زوجي العزيز، فهي تقتلُ فريستها من الضّربة الأولى، وأنا أموتُ معكَ ببطء شديد! ليتك تقتلني لأرتاح.

– ألهذا الحد تكرهينني؟

– أكرهُ طباعَك!...

شعر بأن كرامتُه تهان ورفع يده مجدداً ليضربها، ثم تنبه للأمر فتراجع خارجاً من الغرفة، تاركاً إياها تبكي وحيدة.

جلس في الصالة، وأخرج لفافة تبغ، أخذ يتنفّسها بعصبيّة.

نظر في ساعته، كان الليل قد انتصف، صفقَ الباب خارجاً من المنزل، ثم عادَ ومعهُ مستحضرٌ طبّي، ألقاهُ على سريرها وهو يقول بجفاءٍ.

– استعملي هذا تحتَ عينكِ، سيختفي هذا الأثر إن واظبت على استعماله حتى الغد.

قاطعهُ صوت سوسن آتياً من الخلف:

– ولماذا تريده أن يزولَ يا أبي في الغد؟ أنت لم تخطئ كما تردد دائماً فلمَ تخشى ظهور الأثر؟!

هتفت الأم بجزع:

– منذ متى وأنتِ هنا يا زهور؟!

– إنني دائماً هنا وإن لم تشعروا بوجودي، لم تغمض لي عينٌ، وقد رأيت وسمعتُ ما يحدث.

أمسكت منديلاً ووضعت عليه القليل من المرهم، وأخذت تمسح مكان الألم عن وجه أمها وهي تقول بأسى:

– مهما أخفيتِ يا أمي من الألم فإنه يظهرُ في الواقع على هيئة كدمات!

حاولت كوثر رسم ابتسامة باهتة على وجهها على الرَّغم من الدموع التي عادت لتنسكب غزيرة وقالت بصوت متعب:

– لكنني بخير كما ترين والأمر أبسط مما تخيلتِ.

وافقها الزوج وقد تغيرت نبرة صوته.

– اذهبي يا ابنتي ونامي فهو مجرّد إشكالٍ بسيط، وكما ترين قد حُلّ وانتهى الأمر، أريد أن أراك عروساً جميلة في الغد.

نظرت في عيني والدها متحدّية:
– أجل... لقد انتهى الأمر... ولن أكون عروساً في الغد.
ردّ مستغرباً:
– عن أي شيءٍ تتحدثين؟
– لقد انفصلتُ عن خطيبي إلى الأبد، وأقنعته أن يلغي الزفاف.
احمرّ وجهه غاضباً وصرخ بها:
– هل جننتِ، إنه ثروة! شاب قوي طموح، كما أنه يحترمني كثيراً، وأيضاً هو يحبّك.
لن أتزوج أبداً شخصاً يشبهك! لا أريدُه يا أبي، وإن أوسعتني ضرباً، أو قطعتني إرباً، أريدُ يداً إن مدّت فلكي تصافحني، وأن لمستها أدفأتني، لا أرغبُ أن أدفنَ وجهي يوماً تحت مكعباتِ الثّلج، أو أن أتحايل على ألمي بمرمهم للكدمات، أو أستنزف روحي لأرشو ابتسامتي.إنني مفلسة أكثر مما تتخيل يا والدي، لن أملك يوماً أن أشتري صمتهُ، ويشتري هو كرامتي!

عودةُ روحٍ

أرادت أن تستعيدها مجدداً من هناك...
كلّ جارحةٍ من جوارحها أرادتها بشدّة!
لم تشعر بهذا الشّوق إليها من قبل، ربما تظاهرت طوالَ هذه المدّة أنها نسيتها، أو دفنتها في قاعٍ سحيق.
ربما حدّثتها نفسها بأنها ستزعجها، ستسبب لها المتاعبَ والمشكلاتِ،

وبأنهما غير ملائمةٌ لها، وقد تقلدت المناصبَ حتى اعتلت مؤخراً هذا المركزَ الجديد.

قد استقبلوها بالحفاوةِ والترحيبِ، وأشاروا إليها بالبنانِ، ومنحوها أرفع الدرجاتِ، وأفاضوا عليها بشهاداتِ التقدير.

وكانت هي معهم في كلّ ذلك، قطرةُ مطرٍ انجرفت مع السيلِ الكبيرِ، قطرةٌ لم تملكُ إلا أن تسيرَ كما أرادوا لها، إنه الممكنُ والمتاحُ والمعقولُ في هذا الزمان، وفي ظلّ تجددِ الظّروفِ!

أيامٌ طويلةٌ قد مضت، وهي على ذات الكرسيّ الأسود، أمامها حفنةُ أوراقٍ، وقلمٌ مذهّبٌ ومحبرةٌ.

وعلى يمينها ثلاثةُ هواتفٍ لا تتوقفُ عن الرّنين، ولا تتوقف هي عنِ الإمضاء باسمها اللمّاع، الذي يحيلُ الأوراقَ العاديّةَ إلى أوراقٍ ذات قيمةٍ كبيرةٍ، تحملُ الكثيرَ من البشرى لمن يتلقاها، ولا تحملُ لها إلا مزيداً من الكآبة.

أعوامٌ مضت، وهي في ذات المكان، قد توحدت بالكرسي البارد، وبصوتِ الرنين.

خطَّ الشيبُ سطورهُ في مفرقها، وترك الزمنُ آثاره بادية على وجهها، إنها تزداد شحوباً، تتهاوى، تضيعُ في زحامِ الحياة والأعمالِ والمهامِ التي لا تنتهي.

صوتُ رنين الهواتف معاً قد غدا يقرعُ قلبها بشدّة، يصيبها بدوارٍ، يشعرها بأن ساعةَ النّهايةِ وشيكةٌ.

عرفت بأنّ المكتبَ الأنيقَ سيغدو قبرها يوماً، والقلمَ والأوراقَ أدوات قتلٍ تحيكُ لها أكفانها.

وفي لحظةٍ عابرةٍ وهي تخط حروفَ اسمها، تذكرت أنها هي تلكَ المرأةُ التي ضاعتْ منها ذاتَ بؤس، وتذكرتْ ملامحها الطفوليّةِ، وإشراقَ بسمتها، تذكّرتْ حيويتها وروحها الحلوة، وكلّ المرحِ الذي كان يصحبها.

اشتاقتْ لتلك المرأة التي كانت تسكنها، اشتاقتْ لبساطةِ عيشها، لتلك الغرفةِ المظلمةِ التي حوتْ أحلامها، لرحلةِ الكفاح التي عاشتها بحلوها ومرّها وكلّ متاعبها.

وكم تمنت قليلاً من كَبَدٍ يُعيدُ لها ذاتها التي خبرتها، ويكسرُ عنها قالبَ الزجاجِ الذي احتجزها لأعوامٍ طويلةٍ...

في لحظةٍ واحدةٍ، شقّ الفجرُ طريقهُ إلى قلبها، وبزغتْ شمسٌ دافئةٌ في حنايا روحها.. وامتد طريقٌ وعرٌ بصخورٍ شتّى كتلك التي عرقلتها طويلاً فحطمتها ومهدتها ونقشتْ لها توقيعاً على أقساها.

أمسكتْ ورقةً فارغةً وخطّتْ رسالةَ الوداع، وعندَ السّطرِ الأخيرِ نظرت للقلمِ فإذا هو قد غدا أزميلاً في يدها، فانطلقت تنقشُ أحلاماً جديدةً عزمت أن تكون لها، بعد أن استعادت روحها من جديدٍ.

وأسقطتني... روايةٌ

واجهةُ مكتبةِ السلامِ كانتْ قِبلةَ القاصداتِ للعلمِ والترفيهِ والتسليةِ من فتياتِ مدرسةِ الثّانويةِ العامّةِ المجاورةِ لها، يجتمعن أمامها عند انتهاءِ الدوامِ المدرسيّ، ويبتعن معظم ما يحتجن إليه من كتبٍ قيّمة ومراجعٍ

وقصصٍ هادفةٍ ممتعةٍ، ثم يعدن إلى بيوتهنّ تزيّنهنّ العفّة ويكمّلهنّ الحياء، تقودهنّ في الثقافة والتحصيل: علياء!

كانت علياء فتاةٌ متفوّقة تهوى القراءة، تلفتها عناوينُ الكتبِ فتتوقُ لتلجَ إلى مكنوناتها، وتستخرج الدّر ببراعةٍ، فتزداد فهماً، وتصدّر الكثير مما لديها إلى زميلاتها اللواتي أحببنها لعلمها، فاتخذنها قدوة ونبراساً.

كانت علياءُ منَ النّوع الطموحِ الذي لا يتوقّف عند قمّة حتى يبحثُ عن التي تليها، ولا يرضى بالنّجوم بل يطمح لأن يعتليها، قد أتعبت واجهة مكتبة السّلامِ لكثرة التحديقِ في بضاعتها، وأرّقها غلاءُ الأسعار فتمنّت لو اغتنت فامتلكت المكتبة بما فيها.

على جانب الرّصيفِ المقابلِ قامتْ مكتبةٌ صغيرةٌ بلا جدرانٍ، تتوكأ الكتبُ فيها على سورٍ قصيرٍ، وترخي أجسامها الصّغيرة بين أقدام المارّةِ، وتتمرّدُ بوقاحةٍ على حقوقِ المُشاة، فتشي ببعضِ ما تحويه من صورٍ مبتذلة تحملها أغلفتها، أو عناوين ساقطة تتربّع على جبينها.

هُناك... جلسَ رشيد على كرسيٍّ قصير يراقبُ بحسدٍ المكتبةَ المقابلةَ، ويفكّرُ في طريقة مثلى لاجتذابِ الزبائنِ من الجنسِ اللطيفِ، لعلّ جيوبه تمتلئ، حين تخلو عقولهنّ إلا من تفاهاتِ ما يحمل.

ذات مساءٍ، والكلّ عائدٌ إلى عشّهِ، وقفت علياءُ على الرّصيف تتأمّلُ الكتب المغبرّة بفضولٍ لا يخفى عنْ عاقلٍ رشيد، وقد وشت عيناها عن شغفها بالقراءةِ، وأغراها السّعرُ الزّهيدُ فقررت أن تبتاع من كتبِ الرّصيف لعلها تخلصُ أحدها من عيشِ التّشرد في الشّوارع، وذلّ الشّعور بالإهانةِ وهي تحترقُ كلّ يوم بشعاعِ الشّمسِ، وفي نفسِ

الوقتِ تضيف لنفسها فكراً جديداً، ترفعُ به ملكة الإنشاءِ لديها فتبدعُ في الامتحان النهائيّ.

العناوينُ كثيرةٌ أمامها، والأغلفة غامضةٌ لا تشي بمكنوناتها! وعلياءُ حائرة لا تلوي على قرار.

باحترافٍ مصطنع ناولها رشيدُ روايةً وقالَ لها:

– أنتِ محظوظة يا شابّة! هذه الرّواية أجمل ما كُتب في عالمِ الأدب، وقد بعتُ منها الكثير لفتيان وفتياتٍ في مثلِ عمرك، فأعجبوا بها أشدّ الإعجابِ، وطلبوا المزيدَ من الرواياتِ التي على شاكلتها، فاهنئي بها.

تناولت الرّواية بفرحٍ، وناولتهُ الثّمن البخس، وغادرت إلى غُرفتها لتمارسَ طقوسَ القراءةِ بهدوءٍ أمام نافذتها.

كانَ العنوانُ مُغرياً، والسّطورُ طريقاً طويلةً حفّت بالجمالِ فما أشعرتها بطولها، عن لغةٍ جديدةٍ تُدعى لغةُ الجسدِ قرأت، وولجت عالماً لم تعرفه بعد، قالوا أنّه الحبّ، فامتلكت قلبها تلك الرّواية، واستأثرَ بتفكيرها كلّ حدثٍ من أحداثها، وغادرت عالمها الجميل لتحيا في أحلامِ اليقظةِ مع أبطالٍ من صُنعِ الخيال.

فأغواها البيانُ المسمومُ، وأغرتها حُروفُ الحبّ، وغدت عاشقةً لوهمٍ تتبعُ سراباً، تلاحقهُ على غيرِ هدى.

مضى شهرٌ، ثمّ شهران...

وافتقدت مكتبةُ السّلامِ علياء، واشتاقت لها، بينما اعتادَ الرّصيفُ ترددها عليه، ألفتِ الكتب الرّخيصة فترددت عليها بانتظام، وأحضرت معها من المقرّبات سماء وربى وزهور.

وتزاحمت الأيدي الرقيقة لتشتري اللونَ الخبيثَ من الكتب، وسرت تلك الرّواياتُ في المدرسةِ كالسرطان، تختفي في حقائبِ الفتيات، ولا تظهرُ إلا في الظّلمة. تتصدّرُ أحاديثهنّ همساً، وتسرقُ قلوبهنّ علناً، وتدفنُ ملامحَ البراءةِ على وجوههن قسراً!

ومع انتهاء العام الدّراسي أغلقت نهائياً مكتبةُ السّلام، وخَوَت رفوفها من الكتب القيّمة، واختفت كتبُ الرّصيف، واختفى معها رشيد!

ومع حلول إجازة الصّيف، تغيّرت ملامحُ الحيّ، فامتلأ بالإعلانات والزّينات، ووزّعت الحلوى على المارّة، فقد افتتح المحلّ الجديد (مكتبة العشّاق) للمالكِ الجديد رشيد.

في ليلةِ الاحتفالِ والكلّ مذهولٌ بنشوةٍ من الفرح، اقتربت فتاةٌ من المكتبةِ الجديدةِ تحملُ كتباً كثيرةً، وتوسّطت الحشود بهدوءٍ، وألقت الكتبَ على الرّصيفِ أمامَ بوابةِ المكتبة!

وقفت تقول: أيها الناس؛ لقد أتيتُ اليومُ لأحتفل معكم بإغلاقِ مكتبةِ السّلام بما فيها من كتبٍ قيّمةٍ ثمينةٍ، وافتتاح مكتبة العشّاق بما تحوي من دمارٍ وابتذال.

اسمعوا منّي فأنا ضحيّة قتلني هذا الرّجل، وأشارت إلى رشيد الذي أذهله الموقف.

قتلَ في قلبي الطّهر، وسلبني البراءةَ والإيمان، ومازالَ يغويني كشيطانٍ رجيم ويغوي بنات جيلي بما يزيّنُ لهم من قصصٍ ماجنةٍ وآثام، تارة يتذرّعُ بأنه يبيع رواياتٍ عالميّة، وتارة يسوّقُ لأسماءٍ لامعة، وما لمعانها إلا محضُ خيال، وقد قرأتُ أدباً عالمياً نظيفاً، فما أبعدهُ عن بضاعته، وعرفتُ أسماءً كثيرةً، لم تشبه تلكَ الأسماءَ

الرّخيصةَ التي يروّج لها.
وأطرقت تمسحُ دمعها وهي تقول:
– لقد عرفتُ هذا متأخرة، وتبعتُ وهمَ الحبّ وقد كان خُرافةً صُنعت في خيالٍ مريضٍ فما وجدتُ من حبّهم المزعوم إلا الألم والذّل والهوان.
لقد كنتُ عزيزة كريمة، فأسقطتني رواية، وأحرقتني رواية، ودمّرتني رواية، فانتزعت كل الجمال في قلبي، فلا حصّلتُ نجاحاً في مدرستي، ولا ذقت طعم فرحٍ في حياتي!
فلا تسلوني لم تبعثرت عقولُ أبناء جيلي، فذاك لأنكم قتلتموه بأيديكم فسمحتم لهذا السّقط أن يعبث بعقول فلذات أكبادكم.
هاكم روايات باعنيها فاغتنى، حرّقوها أو دعوه يقضي على ما تبقى من فضيلة بينكم.
ومضت علياء باكية وسط حشود ألهبت رصيف المدرسة جمراً وغضباً.

أجنحةُ الأملِ

كان الجميعُ سعداءَ بوهمِ التحليقِ...
قد رسموا في سقفِ الزنزانةِ سماءً وشمساً وغيماً...
فرّدُوا أجنحتهم البالية، وأخذوا يحرّكونها بفرحٍ.
وتعالت ضحكاتهم، وقد صدّقوا الأكذوبةَ من فرطِ الأسى.

فجأةً... أمطرتِ السّحبُ الوهميّةُ.
ولم يستطيعوا حينها أن يصدّقوا أن للأملِ أجنحةً أخرى – غيرَ مرئيّةٍ – قد تصنعُ المستحيل.

الثقافة بالمَجّان

سلسلة كتب أدبيَّة مجّانيَّة أسَّسَها *ناجي نعمان* عامَ ١٩٩١ وما زالَ يُشرفُ عليها

Ath-Thaqafa bil Majjan

Série littéraire gratuite établie et dirigée depuis 1991 par
Free of charge literary series established and directed since 1991 by
Serie literaria gratuita establecida y dirigida desde 1991 por
Naji Naaman

TAHLIQUN bila AJNIHA
تحليقُ بلا أجنحة

Avril 2009

ألحقوقُ مَحفوظة © ***Tous droits réservés* – All rights reserved – *Todos los derechos reservados***

Maison Naaman pour la Culture & www.najinaaman.org